

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الذهبية

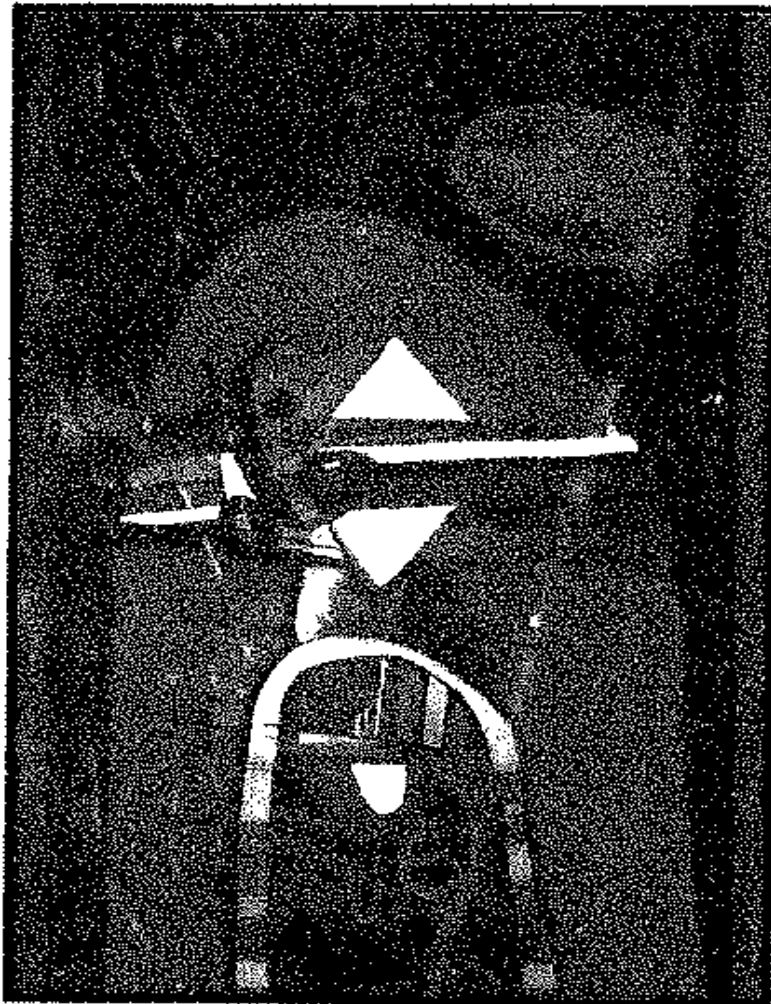
مكتبة

الأسيوط

1999

عقريّة الإمام

عباس محمود العقاد



توزيع: دار المعارف

1999

0051250



Bibliotheca Alexandrina

عبقرية الإمام

طبعة خاصة بصدرها
دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
ضمن مشروع مكتبة الأسرة

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة



عبقرية الإمام

عباس محمود العقاد





مهرجان القراءة للجميع ٩٩
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(سلسلة الأعمال الدينية)

الناشر
دار نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

عبقرية الإمام
عباس محمود العقاد

الغلاف
الإشراف الفني:
للغتان / محمود الهندي

المشرف العام
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة « مكتبة الأسرة » طموحة منتصرة كل عام،
وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة
من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر
والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع
سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة
بالشباب . تطبع فى ملايين النسخ التى يتلفها شبابنا
صباح كل يوم ... ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل
والأروع والأعظم .

د . سمير سرحان

فى كل ناحية من نواحي النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبى طالب رضوان الله عليه ..

لان هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما انجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء ، وتشير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشرى من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل .

فى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة والإحساس المتطلع إلى الرحمة والإكبار .. لأنه الشهيد أبو الشهداء ، يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحدا بعد واحد شيوخا جليلهم وقار الشيب ثم جليلهم السيف الذى لا يرحم ، أو فتيانا عولجوا وهم فى نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة ، بل يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء ، وهم على حياض المنية جياع ظماء .. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبح ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعر فيلسوف كأبى العلاء لا يظن به التشيع بل ظنت بإسلامه الظنون :

وعلى الأفق من دماء الشهيد ين على ولجله شمساهدان
فهما فى أواخر الليل فجرا ن ، وفى أولياته شفقان

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلما تبلغها فى سير الشهداء غاية ، وكثيرا ما تتعطل إليها سرائر الأمم فى قصص الفداء التى عمرت بها تواريخ الأديان ..

وفى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالخيال حيث تخلق الشاعرية الإنسانية فى الأجواء أو تفوص فى الأغوار . فهو الشجاع الذى نزعته به الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل ، واشترك فى تعظيمه جهود العيان وعشاق الأعاجيب .. ألم يحارب المردة فى فلواتها ؟ .. ألم يتخلق له الرواة أندادا من

المناجزين والمبارزين لم يخلقهم الله ؟ . . ألم يستصغر عليه المحبون الغالون في الحب أن يصرع من عرفنا من خصومه فأنشوا له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه ؟ . . ألم يوشك من وصفوه ووصفوا وقعاته وفتكاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير وهو هو أصدق الأبطال في أصدق مجال .

وتلتقى سيرته - عليه رضوان الله - بالفكر كما تلتقى بالخيال والعاطفة ؛ لأنه صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الشقافة الإسلامية ، ولأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور ، ولأنه أوتى من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين ، فهو الذكاء الذي تحسه في الفكرة والخاطرة قبل أن تحسه في نتيجة العمل ومجرى الأمور .

وللدوق الأدبي - أو الذوق الفنى - ملتهقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة ؛ لأنه رضوان الله عليه كان أديبا بليغاله نهج من الأدب والبلاغة يقتدى به المقتدون ، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتلوقون ، وإن تطاولت بينه وبينهم السنون . فهو الحكيم الأديب ، والخطيب المبين ، والمنشئ الذى يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات النافرين والناظمين . .

وللنفس الإنسانية نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخييل والتفكير ، وتلوق الحسن الجميل من التعبير .

فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط فى زمن من الأزمان ، وهى ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان ، أو ناحية الخصومة الناشئة أبدا على رأى من الآراء ، أو حق من الحقوق ، أو وطن من الأوطان .

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين ، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين ، ولكن الذى لم يفتر قط ولا نخاله يفتر فى حين من الأحيان خصام العقول وجدل اللسان واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين .

وإن ها هنا للمجال الرغيب والملتقى القريب فى سيرة هذا الإمام الأوحى التى لا تشبهها سيرة فى هذه الخاصة بين شتى الخواص ، وهو رضوان الله عليه قد قال فى ذلك أوجز مقال حين قال :

« ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي ، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي » .. أو حين قال : « يهلك في رجلان : محب مفرط بما ليس فيّ ومبغض يحمله شنأني على أن يبهتنى » .

وصدق الإمام الكرم في غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه ، فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين ، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين : هنا الروافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه .. ويستتبيهم فيصرون على الكفر أي إصرار ، ويأمر بإحراقهم فيقولون وهم يساقون إلى الحفيرة الموقدة : إنه الله وإنه هو الذي يعذب بالنار! .. وهناك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة إلى الله عن عصيانه .. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السباب ..

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسع في تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء : يقول أناس : إله . ويقول أناس : كافر مطرود من رحمة الله ! ..

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقبها سيرة الإمام في أكثر من طريق : وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق إلى التجديد والإصلاح ..

فقد أصبح اسم علي علماً يلتف به كل مغصوب ، وصيحة ينادى بها كل طالب إنصاف ، وقامت باسمه الدول بعد موته لأنه لم تقم له دولة في حياته . وجعل الغاضبون على كل مجتمع باغ ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح ، أو كأنها النفس الذي يستروح إليه كل مكظوم .. فمن نازع في رأي ، ففي اسم علي شفاء لتوازع نفسه ، ومن ثار على ضميم ففي اسم علي حافظ لثورته ومرضاة لغضبه ، ومن واجه التاريخ العربي بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين علي في وجه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته . وتلك هي المزية التي انفرد بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمة الخلفاء ، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الأدمية إن قصر في خلقها التاريخ والمؤرخون .

وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب في حذر ما بعده من حذر ؛ لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ، ولا ينقصها أو يشول بها إلى البساطة والوضوح ، وكلما قلت هذه العوامل وانحصرت في ناحية من النواحي سهل الخلوص إلى مقطع الحق فيها . فالبطل الذي يلتقى بالفكر وحده أسهل من البطل الذي يلتقى بالفكر والعاطفة ، وإن هذا لأسهل من الذي يلتقى بالفكر والعاطفة والخيال ، وكل أولئك أسهل ممن يلتقى في ألف سنة متوالية بدخائل النفوس جميعا من طمسوح إلى المثل الأعلى ، أو حرص على الملاحاة ، أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى ، مزيدا على التخيل والشعور والتفكير .

لهذا تعلم غير مترددين في علمنا أن واجبنا في « عبقرية الإمام » مرسوم للغاية والطريق ، وهو واجب التبسيط والقصد إلى الخططة الوسطى ، وفي علمنا بهذا بعض التيسير ، وإن لم يكن فيه كل التيسير ، نرجع « بعبقرية الإمام » إلى الحقيقة الوسطى .

نرجع من عشرين طريقا إلى بداية واحدة ؛ لأن الطريق الواحدة لا تؤدي إليها أقرب أداء . . وحسبنا أننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق إلى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله . .

عباس محمود العقاد

الفصل الأول

صفاته

المشهور عن علي كرم الله وجهه أنه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين . . فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المقدمين ، وهي في جملتها النبيل والأيد والشجاعة والبرودة والذكاء ، عدا المآثور في سماتها الجسدية التي تلاقى أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام .

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف .

وقيل إن اسمه الذي اختارته له أمه : حيدرة باسم أبيها أسد ، والحيدرة هو الأمد . . ثم غيره أبوه فسماه عليا وبه عرف واشتهر بعد ذلك . .

وكان علي أصغر أبناء أبيه ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين .

قيل إن عقيلاً كان أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه ، فلما أصاب القحط قرىشا وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا عقيلاً وخذوا من شئتم . فأخذ العباس طالبا وأخذ حمزة جعفرأ وأخذ النبي عليه السلام علياً كما هو مشهور . فعرضه إيثار النبي بالحلب عن إيثار أبيه ، ولكنه عرف هذا الإيثار في طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر في نفسه على ما يبدو من أطوار حياته التالية ، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد فتعود أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج في صباه .

وربما صح من أوصاف علي في طفولته أنه كان طفلاً مبكر النماء سابقاً لانداده في الفهم والقدرة ؛ لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدق فهمها والتنبيه لها على من كان في مثل هذه السن المبكرة . فكانت له مزايا التفكير في النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكرين ، ولا سيما المولودين منهم في شيخوخة الآباء . .

ونشأ رضى الله عنه رجلا مكين البنيان فى الشباب والكهولة ، حافظا لتكوينه
المكين حتى ناهز الستين . .

قال واصفوه وهو فى تمام الرجولة إته كان رضى الله عنه ربعة أميل إلى القصر ،
أدم - أى أسمر - شديد الأدمة ، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها ، ثقيل
العينين فى دعج وسعة ، حسن الوجه وأضح البشاشة ، أغيد كأنما عنقه إبريق
فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش^(١) السبع الضارى لا يتبين عضده من
ساعده قد أدمجت إدماجا . وكان أبحر - أى كبير البطن - يميل إلى السمنة فى
غير إفراط ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق
مستدقها ، شثن الكفين ، يتكفا فى مشيته على نحو يقارب مشية النبى ، ويقدم
فى الحرب فيقدم مهرولا لا يلوى على شيء .

وتدل أخباره - كما تدل صفاته - على قوة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة
على العوارض والآفات . فرما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا
حافل ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، واشتهر
عنه أنه لم يصارع أحدا إلا صرعه ، ولم يبارز أحدا إلا قتله ، وقد يزحزح الحجر
الضخم لا يزحزحه إلا رجال ، ويحمل الباب الكبير يعبى بقلبه الأشداء ، ويصبح
الصيحة فتتخلع لها قلوب الشجعان .

ومن مكانة تركيبه رضى الله عنه أنه كان لا يبالي بالحر والبرد ، ولا يحفل
الطوارئ الجوية فى صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثياب الصيف فى الشتاء وثياب
الشتاء فى الصيف ، ومثل فى ذلك فقال : « إن رسول الله ﷺ بعث إلى وأنا
أرمد العين يوم حبيبر ، فقلت : يا رسول الله : إنى أرمد العين . فقال : اللهم
أذهب عنه الحر والبرد ، فما وجدت حرا ، ولا بردا منذ يومئذ . . » .

* * *

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالقاما
بلغت بهما المساواة والإيذاء . فقد كان يرعد للبرد إذا اشتد ولم يتخذ له عدة من
دثار يقيه . قال هرون بن عنثرة عن أبيه : دخلت على على بالخورتق وهو فى فصل
شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد جعل

(١) الشاش : رأس العظم .

لك ولاهلك فى هذا المال تصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ .. فقال : والله ما أرزؤكم شيئا ، وما هى إلا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة .
فليس هو اعتماد حس بالصيف والشتاء ، إنما هى مناعة قوية خصت بها بنيته ، لم يخص بها معظم الناس .

وكان إلى قوته البالغة ، شجاعا لا ينهض له أحد فى ميدان مناجزة ، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنا من الأقران بالغا ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذى كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعا فى الحديد ينادى جيش المسلمين : من يبارز .. فصاح على : أنا له يا نبيّ الله .. قال النبيّ وبه إشفاق عليه : إنه عمرو . اجلس . ثم عاد عمرو ينادى : ألا رجل يبرز ؟ .. وجعل يؤنبهم قائلا : أين جنتكم التى زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم ؟ .. أفلا تبرزون إلى رجلا ؟ .. فقام على مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يا رسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس . إنه عمرو ، وهو يجيبه : وإن كان عمرا .. حتى أذن له فمشى إليه فرحا بهذا الإذن الممنوع كأنه الإذن بالخلاص .. ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله : من أنت ؟ .. قال ولم يزد : أنا على . قال : ابن عبد مناف ؟ .. قال : ابن أبى طالب . فأقبل عمرو عليه يقول : يا ابن أخى .. من أعمامك من هو أسن ، وإنى أكره أن أهريق دمك ، فقال له على : لكنى والله لا أكره أن أهريق دمك . ففض عمرو وأهوى إليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار ، واستقبل على الضربة بدرقته ففقدها السيف وأصاب رأسه ، ثم ضربه على حبل عاتقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض ، وثار الغبار ، فما المجلى إلا عن عمرو صريعا وعلى يجأر بالتكبير .
وكانما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذى لا يؤسى على مصابه ؛ لأنه أحجى المصائب ، وأقلها معابة ألا يدفع . فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسى بعد موته :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله

بكيسته أبدا ما دمت فى الأبد

لكن قاتله من لا نظيره
وكان يدعى أبوه بيضة البلد

* * *

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التي يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب ..

ويزيدها تشريفا أنها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء .. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها على بغير كلفة ولا مجاهدة رأى . وهي التورع عن البغى ، والمروعة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء ، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال . فمن تورعه عن البغى ، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة ، أنه لم يبدأ أحدا قط بقتال وله مندوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحسن : « لا تدعون إلى مبارزة . فإن الداعي إليها باغ والباغى مصروع » ..

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل له إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك ، فقال : « لا أقاتلهم حتى يقاتلوني . وسيفعلون ! .. » . وكذلك فعل قبل وقعة الجمل ، وقيل وقعة صفين ، وقيل كل وقعة صفرت أو كبرت ووضح فيها عداة العدو أو غمض : يدعوهم إلى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر ، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلم .

كان يعظ قوما فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح معجبا إعجاب الكاره الذي لا يملك بغضه ولا إعجابه : قاتله الله كافرا ما أفقهه .. فوثب أتباعه ليقتلوه ، فنهاهم عنه ، وهو يقول : إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب .

وقد رأينا أنه كان لعمر بن ود : إنى لا أكره أن أهريق دمك .. ولكنه على هذا لم يرغب فى إهراق دمه إلا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين .. فعرض عليه أن يكف عن القتال فأنف ، وقال : إذن تتحدث العرب بفرارى ، وتاشده : يا عمرو . إنك كنت تعاهد قومك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما . قال : أجل . قال : فإنى أدعوك إلى الإسلام أو إلى النزال . قال : ولم يا ابن أخى ؟ .. فوالله ما أحب أن أقتلك .. فلم يكن له بد بعد ذلك من إحدى الثنتين : أن يقتله أو يقتل على يديه .

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداة لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة : فاتفق في يوم صفين أن يخرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كرز بن الصباح الحميرى فصاح بين الصفين : من يبارز ؟ .. فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليه ونادى : من يبارز ؟ .. فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم نادى : من يبارز ؟ .. فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبيه ، ثم نادى رابعة : من يبارز ؟ .. فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه ، وخاف على أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل المدلل بشجاعته وبأسه فصرعه ، ثم نادى نداهه حتى أم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال مسمعا الصفوف : يا أيها الناس . إن الله عز وجل يقول : « الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحَرَمَاتُ قِصَاصٌ » ، ولو لم تبدؤونا ما بدأناكم .. ثم رجع إلى مكانه .

أما مروءته في هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان ، فأبى على جنده وهم ناقدون أن يقتلوا مديرا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترا أو يأخذوا مالا ، وصلى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء ، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم الد أعدائه المؤلبيين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء ، وظفر بعمر بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوائه اتقاء لضربته .. وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له : ولا قطرة حتى تموت عطشا .. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده ، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات : أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادى . فلم يرد عليها شيئا ، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها ، قال رجل أغضبته مقالها : يا أمير المؤمنين . أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع ؟ .. فانتهره وهو يقول : ويحكم ؟ .. إنا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات ؟ .. وإنه لفي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة . ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميالا وأرسل معها من يخدمها ويحف بها . قيل

إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن بالسيوف . . فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت : هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي . . فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها : إفا نحن نسوة .

وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه ، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها ، ومن كان في حرمة عائشة رضى الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة ، وهي أندر مروءة عرفت من مقاتل في غير القتال . .

وتعدلتها في النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه . فنهى أهله وصحبه أن يمثلوا بقاتله ، وأن يقتلوا أحدا غيره ، ورثى طلحة الذي خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والموءة ، وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرأ عليه من معاوية وجنده ؛ لأنه رآهم مخلصين وإن كانوا متحطئين وعلى خطتهم مصرين . .



وتقترن بالشجاعة - ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم - صفة لازمة لها متممة لعملها فلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضح للماء ، أو بالإشعاع للنور ، فلا تكون شجاعة الفروسية إلا كانت معها تلك الصفة التي نشير إليها ، وهي صفة « الثقة » أو « الاعتزاز » أو الأذراع بالهيبه والتحويل على الخصوم ولا سيما في مواقف النزال وقد يسميها بعض الناس زهوا وليست هي به ولا هي من معدنه وسمته ، وإن شابهته في بعض الملامح والألوان .

فالزهو المدموم فضول لا لزوم له ولا خير فيه ، وهو لون خادع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة ، وقد يبدو على الجبان كما يبدو على الشجاع . .

أما هذا الاعتزاز الذي نشير إليه ، أو هذه الثقة التي تظهر لنا في صورة الاعتزاز ، فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلا بعمله في مواجهة خصومه ، وهو عرض للقوة يساعد الفارس في إرهاب عدوه وإضعاف عزيمته من يتصدى لحربه . . مثله هنا كمثل العروض التي تعمد إليها الجيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها . فهو كالشجاعة أداة

ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها ، وليس كل ما فيها ضربا من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره ويثبه به في غير حاجة إلى التيه .

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكري من قديم الزمن وعهدوه وتحذثوا به وتناقلوه ، فسمحوا للفارس - بل لعلهم أوجبوا عليه - أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب إذ يتقدم لنزاله ، وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار في ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والإشادة بجزواته ، وعلموا أنهم - وقد احتاجوا إلى شجاعته - محتاجون كذلك إلى فخره وحماسته وإيقاع الرعب في جنان قرنه ، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة ، وهي أحب القصائد إلى القلوب .

* * *

ومن تأصل هذه العادة في الطبائع أنها تشاهد في جميع الأحياء فطرة وارتجالا بغير اصطناع ولا تعمد ، فلا نرى حيا من الأحياء الناطقة أو العجماء ينازل قرنا له إلا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدره واثمار نظره وتنقيش ريشه أو شعره ، ويقف الإنسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدق بيده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان ، فإذا هو الفخر والحماسة وإذا هو عنوان الثقة والإقدام ..

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان ، ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجها لوجه ، وينظر أحدهم إلى قرنه وهو يهجم عليه .

وكانت هذه الصفة من صفات على رضى الله عنه ، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدرا بفضله ، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو أو يسميها الجفوة والخيلاء . قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر : إنك والله ما علمت لتتنظر الخيلاء .. ومر الزبير بن العوام مع رسول الله في بنى غنيم ، فرأى رسول الله عليا على مقربة منه فضحك له وضحك على يحييه . فقال الزبير : لا يدع ابن أبي طالب زهوه . قال رسول الله : إنه ليس به زهو ، ولتقاتلته وأنت له ظالم ..

فليس هو بالزهو المكروه ، ولكنها الشجاعة التي يمتلئ بها الشجاع والثقة التي

تترأى مكشوفة في صراحتها واستقامتها ؛ لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس أنه يحتاج إلى مداراتها ، ولأنه لا يقصدها ولا يعتمد إبداءها ..

* * *

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال . فما منعته الطفولة الباكرة يوما أن يعلم أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يركن إليه المستجير . ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبي عليه السلام يندرونه وينكرونه وهو يقلب عينه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير .. لو كان بعلى أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الحشية والخشوع ، ولكنه كان عليا في تلك السن الباكرة كما كان عليا وهو في الخمسين أو الستين .. فما تردد وهم مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب : أنا نصيرك .. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار ، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم ..

علي هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة ، وقد علم ، تأمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش .

وعلى هذا هو الذي تصدى لعمر بن ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه ويحذره العاقبة التي حلها فرسان العرب من غير تحذير ، يقول النبي : اجلس . إنه عمرو . فيقول : وإن كان عمرا .. كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف ، ولا يعرف إلا الشجاعة التي هو يملئ بها واثق فيها في غير كلفة ولا اكتراث .

وتكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التي هي كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها .

وزادها تمكيننا حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين ، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تتخلد ، وأنفة لا تلين . فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأي حين كان يقول : « اسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ، ومناخ ركابها ومحط رجالها » .

ومن شواهدنا أنه كان يقول والخارجون عليه يبرجمونه بالمروق : « ما أعرف أحدا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيري ، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين » .

وزاده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه ، فلما عتب عليه خصمناه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهم قال : « نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته . وما استن النبي ﷺ فاقنته . فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا أدري غيركما . ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني المسلمين ، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما . . . » .

وأبدى هذه الخليفة منه أنه كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال على أن يتألف ، بل كان يقول : « شر الإخوان من تكلف له » ويقول : « إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه » ، فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والإرضاء يخططون ما انتظروه ، ولا سيما إذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التي أوثمن إليها . فيحسبون أنها الجفوة البينة وأنه الزهو المقصود وما هو بهذا ولا يتلك . . إنما هي شجاعة الفارس بلوازمها التي لا تنفصل منها ، وإنما هو امتعاض المغموط المسيء ظنا بمن حوله يتراءى على سجيته في غير مداراة ولا رياء . فما كان يتكلف إظهار تلك الخلاق زهوا كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها ، بل كان قصاراه ألا يتكلف الإخفاء ، فإذا التفت قاصدا إلى ما في نفسه فهو لا يقصد العجب ولا يرضاء ، بل ينهى عنه ويشدد في اجتنابه ، ويوصي من أحب : « إياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها » . . . « واعلم أنه الإعجاب ضد الصواب ، وأفة الألباب » .

نعم كان ملاك الأمر في أخلاق على عليه السلام أنه كان لا يتكلف إظهار شيء ولا يتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه ، فرما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له : « أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك » .

* * *

وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليفته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة . وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء .

كأنه يعنى ما يصنع وهو لا يعنيه ، وإنما يجيء منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها : كان مثلاً يخرج إلى ميارزيه حاسر الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد . أفعجيب منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء ؟ .. وكان يففل الخطاب أحياناً ويرسل الشيب ناصعاً وهو لا يحرم خضابه فى غير ذلك من الأحيان . أفعجيب منه ، مع هذا ، أن يقلل أكثراته لكل خضاب سائراً ما ستر ، أو كاشفاً ما كشف ، من رأى وخلق ؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خلقة أخرى كالشجاعة فى قوتها ورسوخها . . . أو هى قريبة للشجاعة فى نفس الفارس النبيل وقلمها تفارقها ، وتعنى بها خلقة الصدق الصراح الذى يجترئ به الرجل على الضر والبلاء كما يجترئ به على المنفعة والتعماء . فما استطاع أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح فى سلمه وحره ، وبين صحبه أو بين أعدائه ، ولعله كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء بما كان بين الأعداء ؛ لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعتروه بالخلاف . فما عدا معهم قول الصدق فى شدة ولا رخاء ، حتى قال فيه أقرب الناس إليه : إنه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خدعتها . وكان أبداً عند قوله : « علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون فى حديثك فضل على علمك ، وأن تتقى الله فى حديث غيرك » ..

* * *

وصدق فى تقواه وإيمانه كما صدق فى عمل يمينه ومقالة لسانه ، فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهده منه فى لذة دنيا أو سيب دولة ، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطنى ما لا أعلم » . . قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمية التى تبغض علياً وتتخلق له السيئات وتخفى ما توافر له من الحسنات : « أزهده الناس فى الدنيا على بن أبى طالب » . وقال سفيان : « إن علياً لم بين آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبية على قصبية » وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثراً للنخصاص التى يسكنها الفقراء ، وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام . وروى النضر بن منصور عن عقبه بن علقمة قال : « دخلت على على عليه السلام فإذا بين يديه لبن

حامض أذنتى حموضته وكسر يابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتناكل مثل هذا ؟ .. فسأل لى : يا أبا الجنوب ، كان رسول الله يأكل أبيض من هذا ويلبس أحشن من هذا . وأشار إلى ثيابه . فإن لم أخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به ..

وعلى هذا الزهد الشديد كان على رضى الله عنه أبعد الناس من كزازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة ، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال له : « لله أبوك لولا دعابة فيك » وأنه قال لمن سأله فى الاستخلاف : « ما أظن إلا أن يلى أحد هذين الرجلين : على أو عثمان . فإن ولى عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولى على فقيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على الطريق » .

* * *

وأغرق ابن العاص فى وصف الدعابة فسماها « دعابة شديدة » وطلق يرددها بين أهل الشام ليقلح بها فى صلاح الإمام للخلافة ، وإنما نقول أن ابن العاص أغرق فى هذا الوصف ، وإن الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته ؛ لأن تاريخ على وأقواله وتواتره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها ذليلا على خلق الدعابة فضلا عن الدليل على الإفراط فيه . . فإن كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر ابن الخطاب أن يذكره فرما كان مرجع ذلك أن علياً خلا من الشغل سنين عدة ، فأعفاه الشغل شاغل من صرامته وأسلمه حيناً إلى سماحته وأحاديث صحبه ومرديه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون ، ولم يشبهوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه .

وقد كانت للإمام صفات ومزايا فكرية تناصى المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية . فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته ، واتفقوا على علمه وفطنته ، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه فى علاج الأمور ودهائه فى سياسة الرجال .

والحق الذى لا مرأى فيه أنه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف ، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة فى مشكلات الحكم والقضاء ، وأنه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق إليه علم فارس أو علم

يونان . . وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لحفايا الصدور ويشرحها في
عظاته وخطبه شرح الأديب اللبيب . .

إلى هنا متفق عليه لا يكتر فيه الخلاف ، ثم يقترق الناس في رأيه رأيين وإن لم
يكونوا من الشائئين المتحزبين ، فيقول أناس إنه كان على قسط وافر من الفهم
والمشورة ، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه .
ويقول أناس بلى هو الاضطراب والتحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وإنهم لدوته في
الظنونة والسداد ، وهو رضى الله عنه قد اعتلر لنفسه بمشابه من هذا العذر حين قال :
« والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يقدر ويفجر ، ولولا كراهية العذر لكنت من
أدهى الناس » . .

* * *

أما مقطع الرأى بين الرأيين فنرجو أن نفضله في مواضعه من الفصول التالية
مشفوعا بمناسباته ، ولكننا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقتين تجملان ما تبسطه في
مواضعه من الكتاب ، ولا نحسهما تتسعمان لجدل طويل ، وهما أن أحدا لم
يثبت قط أن العمل بالأراء الأخرى كان أجدى وأنجح في فقص المشكلات من
العمل برأى الإمام ، وإن أحدا لم يثبت قط أن خصوم الإمام كانوا يصرفون
الأمر خيرا من تصريفه ، لو وضعوا في موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التي
اصطلحت عليه . وكلتا الحقيقتين حرية أن تضبط لسان الميزان قبل أن يميل فيغلو
به الميل هنا أو هناك .

هذه صفات تنتظم في نسق موصول : رجل شجاع لأنه قوى ، وصادق لأنه
شجاع ، وزاهد مستقيم لأنه صادق ، ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه
مع الرضا والسخط والقبول والنفور ، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن
الناس قد أثبتوا له في حياته أجمل صفاته المثلى ، فلم يختلفوا على شيء منها إلا
الذى اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات ، وما من رجل تتعسف المطامع
أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم .

* * *

الفصل الثامن

مفتاح شخصيته

« آداب الفروسية » هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير .

وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي تلخصها في كلمة واحدة وهي :
النخوة ..

وقد كانت النخوة طبعاً في علي فطر عليه ، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه ، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران ، وإن لم يطبع عليها ونشأ في حجرها ؛ لأن الغلبة في الشجاع أنفة تأتي عليه أن يسف إلى ما يخجله ويشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلماً ، وتمنعه أن يعمل في السر ما يزرى به في العلانية .

وهكذا كان علي رضي الله عنه في جميع أحواله وأعماله : بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء ، فلم ينس الشرف قط ليغتتم الفرصة ، ولم يساوره الريب قط في الشرف ، والحق أنهما قائمان دائماً كأنهما مودعان في طبائع الأشياء ، فإذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاعوا ما وجب عليهم ، وإن أفادوا كثيراً وباء هو بالخسار .

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه ؛ لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الشجاع الشريف ، ولم يرد أن يغلبه أو يقتصر منه كييفما كان سبيل الغلب والقصاص ..

قال بعض من شهدوا معركة صفين : لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفيين وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستويًا بسيطاً واسعاً وأخذوا الشريعة - أي مورد الماء - في أيديهم .. وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء ، ففرزنا إلى أمير المؤمنين فخبيرناه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال له : ائت معاوية وقل له إنا سرنا مسيرنا هذا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإعداء إليكم ، وإنك قدمت إلينا

خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا ، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهذه أخرى قد فعلتوها إذ حلتكم بين الناس وبين الماء ، والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له . . . » .

ثم قال راوى الخبر ما معناه إن معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين على وبين المورد غير حافل بدعوته إلى السلم ولا بدعوته إلى المفاوضات في أمر الخلاف ، فأنفذ معاوية مددا إلى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه ، ثم كان بين المعسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرمح فضرب بالسيوف حتى لقتحم أصحاب على طريق الماء وملكوه .

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء على أن يهتبلها ، وأن يغلب أعداءه بالظما كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة . . . وقد جاء أصحابه يقولون : والله لا نسقيهموه ، فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم . وصاح بهم : « خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكريكم واخلوا عنهم ، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيبهم » .

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة ، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافا لأعدائه ؛ لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال . قالوا : أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟ . . . فقال : « إنما القوم أمثالكم ، من صفع عنا فهو منا ونحن منه ، ومن ليج حتى يصاب فقتله منى على الصدر والنحر » ومن لهم سنة الفروسية أو سنة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترا ولا يمدوا يدا إلى مال .

ومن الفرص التي أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة لا يبالي أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء ، فصلف بوجهه عنه أنفا أن يصرع رجلا يخاف الموت هذه الخفاقة التي لا يرضاها من منزله في مجال صراع ، ولو غير على أتيج له أن يقضى على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداة ودهاء فلم يبالي أن يصيبه حيث ظفر به ، ولا جناح عليه .

* * *

لقد كان رضاه من الآداب فى الحرب والسلم رضا القروسية العزيزة من جميع آدابها ومآثوراتها .

فكان يعرف العدو عدوا حيثما رفع السيف لقتاله . . ولكنه لا يعادى امرأة ولا رجلا موليا ولا جريحا عاجزا عن نضال ولا ميتا ذهبته حياته ولو ذهبته فى سبيل حربه . . بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبيكه ويرثيه ويصلى عليه . وهذه القروسية هى التى بقضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام .

فلما سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم : « إنى أكره أن تكونوا سبّابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب فى القول . وأبلغ فى العمل . وقلتم مكان سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوى عن لغى والعدوان من لهج به . »

وربما شد عن سنته هذه فى بعض الأحيان فإذا به لا يشد عنها إلا كما يشد الفرسان حين تغلبهم بواذر اللسان . . فنذر بين رجال السيف من يسمع الكلمة المفضبة فلا ينطق لسانه بكلمة عوراء يجارى بها غضبه الذى طبع على إبدائه ولم يطبع على كتمانته .

ومن قبيل هذا كلمات قالها على فى ابن العاص وفى معاوية وفى الأشعث بن قيس وغير هؤلاء . . ولكنه لم يجعلها ديدنا له كما سبوه على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار .

شغب عليه الأشعث بن قيس ومرد عليه الجند وأقضى بين أنصاره الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبه وهاج غيظه فبدره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين : حائك ابن حائك ، مناقق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفرة مرة والإسلام أخرى . فما فذاك من واحدة منهما مالك ولا حسبك ، وإن امرأ ولى على قومه السيف وساق إليهم الختف لجرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد . »

* * *

وظفق ابن العاص ينعمته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسبه على المنابر حتى وجب رده وإدحاض زعمه ، فقال رضى الله عنه فى بعض خطبه : عجبا

لابن النابغة ! .. يزعم لأهل الشام أن في دعابة وأنى امرؤ تلعبا : أعانس وأمارس^(١) .. لقد قال باطلا ونطق أئما . أما - وشر القول الكذب - إنه ليقول فيكذب ، وبعد فيخلف ، ويُسأل فيبخل ، ويخون العهد ويقطع الآل^(٢) . فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وأمر هو ما لم تأخذ السيوف مأخذها . فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سبته ، أما والله إنى ليمنعنى من اللعب ذكر الموت . وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة أنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتية آتية ويرضخ له على ترك الدين رضىخة^(٣) .

وكذلك كان يجبه معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون عليه بما يغض من حقه ويقدم في دعوته ، فلا يشد عن ديدن الفرسان فى روية فكره ولا فى بوادر لسانه ، ولكن الفلتات التى من هذا القبيل شىء واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاحا مشهورا وسبيلا إلى القول الباطل شىء آخر ..

ولقد كانت للإمام رضى الله عنه شواغل أخرى غير الفروسية تجرى فى مجراها حيناً وتبدو غريبة عنها حيناً آخر فى عرف بعض الناقدين ، ومنها التفقه والنزوع إلى « التصوف » واستتباط حقائق الأشياء .

* * *

فهذه فى عرف بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسية على ظاهر ما قدره .. ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة ؟ .. أليس هو فى معدنه جهادا فى الحق أو جهادا فى الله ؟ .. أليست طبيعة الجهاد وطبيعة الفروسية من معدن واحد ؟ .. ألم نعهد فى كل ملة وكل زمان فئات من الناس يجاهدون لأنهم متدينون متنطسون ، أو يتدينون ويتنطسون لأنهم مجاهدون ؟ ..

فالإمام على رضى الله عنه فارس لا يخرج من الفروسية فقه الدين ، بل هو أخرى أن يسلكه فيها ، ولا يخرج من الفروسية بعض المقال فى خصومه ، بل هى بوادر الفرسان بعينها ، ولا تزال آداب الفروسية بشتى عوارضها هى المفتاح الذى يدار فى كل باب من أبواب هذه النفس فإذا هو منكشف للناظر عما يليه .

(١) المعانة : مضاربة الناس مزاحا ومغازلة النساء .

(٢) الآل : القرابة والرحم .

(٣) الآتية : العطية ، ومثلها الرضىخة مع قلة .

الفصل الثالث

إسلامه

ولد علي في داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، فكأنما كان ميلاده ثمة إيداننا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها .

وكاد علي* أن يولد مسلماً ..

بل لقد ولد مسلماً علي التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح ؛ لأنه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام .

فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه ، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة . فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيبه الذي نشأ في بيته ونعم بعطفه وبره ، وقد رأينا الغرباء يحبون محمداً ويؤثرونه على آبائهم وذويهم ، فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ، ويجمعه به بيت ، ويجمعه به جميل معروف : جميل أبي طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسه ابن أبي طالب ويأوى إليه ..

واختلفوا في سنه حين إسلامه من السابعة إلى السادسة عشرة ، ولعله أسلم في نحو العاشرة ؛ لأنه كان يناهزها عند إعلان الدعوة المحمدية ، وكان النبي عليه السلام يتعبد في بيته عبادة الإسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة ، وليس ما يمنع علياً أن يألف تلك العبادة في طفولته الباكرة فإذا هو نفر منها ، وأعرض عنها لغير سبب في تلك الطفولة الباكرة ، فالعجيب أنه يعود إلى ألفتها والرضا بها بعد أن بلغ السن التي يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد .

ولولا ألفة علي لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذي دعى إليه ، فقد أصر كثير من أقرباء النبي على الشرك زمناً طويلاً ، منهم عقيل أخوه وأحب إخوته إلى أبيه ، فحارب المسلمين في بدر ولم يسلم وقد وقع في أسر النبي

وصحبه .. بل افتداه عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه ، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين ..

* * *

على أن الألفة بين ابني العم الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقا لإسلام علي في طفولته الباكرة .. لأن النبي عليه السلام أبى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبيه لا يعلم ، وأشفق أن يكون يره بعمه وبابن عمه سبيلا إلى التفرقة بين الأب وابنه وهو لا يدرك ما يفعل ، ولم يشأ أن يعوّد الطفل الصغير أن يخفى سرا عن أبيه كأنه يخدعه بإخفائه ولو في سبيل الهداية والخير ، فظل هذا الحرج الكبير عائقا عسيرا أعسر ما فيه أنه عائق اختيار يهون معه الاضطراب ، أو عائق حيرة تقل فيها حيلة الكرم .. حتى شاع أمر الدعوة الحمديّة وعلم بها أبو طالب ونصّر ابن أخيه وأمر عليا بمتابعة ابن عمه ونصّره ، فأقبل الغلام البر بأبيه وبكافله إقبالا لا تلجلج فيه علي الدين الجديد .

وملا الدين الجديد قلبا لم ينازع فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به إلى عقابيله .. فبحق ما يقال إن عليا كان المسلم الخالص على سجيته المثلى ، وإن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاما منه ولا أعمق نفاذا فيه .

كان المسلم حق المسلم في عبادته ، وفي علمه وعمله ، وفي قلبه وعقله ، حتى ليصح أن يقال إنه طبع على الإسلام فلم تزده المعرفة إلا ما يزيد التعليم على الطباع ..

كان عابدا يشتهي العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمرا مكتوبا عليه .. وكان يرى في كهولته وكأنما جبهته ثفته بعير من إدمان السجود وكان علي محجة في الإسلام لا يحيد عنها لبفية ولا لحشية ، فكلما زينوا له الهوادة أبى « أن يداهن في دينه ويعطى الدنية في أمره » وأثر الخير كما يراه علي الخير كما يراه الناس .. وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه ، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وأذاه ..

* * *

وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به إلى شريح - قاضيه - يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : إنها درعى ولم أبع ولم أهب ، فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ .. قال النصراني : ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندي بكاذب ا .. فالتفت شريح إلى عليّ يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ .. فضحك عليّ وقال : أصاب شريح . ما لي بينة ا .. فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى و « أمير المؤمنين » ينظر إليه .. إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء .. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه يقضى عليه ا .. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين .. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق . فقال : أما إذ أسلمت فهي لك . وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء في قتال الخوارج يوم النهروان .

وأحسن الإسلام علما وفقها كما أحسنه عبادة وعملا ، فكانت فتاواه مرجعا للخلفاء والصحابة في عهود أبي بكر وعمر وعثمان ، وتدرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأى فيها يؤخذ به أو تنتهض له الحجة بين أفضل الآراء ..

غير أن المزية التي امتاز بها عليّ بين فقهاء الإسلام في عصره أنه جعل الدين موضوعا من موضوعات التفكير والتأمل ، ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام ، فإذا عرف في عصره أناس فقها في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أفضيته وأحكامه ، فقد امتاز عليّ بالفقه الذي يراد به الفكر الخصب والدراسة الخالصة ، وأمعن فيه ليفحص في أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام .

ويصح أن يقال إن عليا ، رضى الله عنه ، أبو علم الكلام في الإسلام ؛ لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبو تلميذ عليّ رضى الله عنه . وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن عليّ بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ

أبي علي الجبائي ، وأبو علي الجبائي أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم وأصل بن عطاء . . أما الفقه فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ علي جعفر بن محمد وجعفر بن محمد قرأ علي أبيه وهكذا ينتهي الأمر إلى علي رضي الله عنه . وقد قرأ مالك بن أنس علي ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة علي عكرمة ، وقرأ عكرمة علي عبد الله بن عباس وقرأ عبد الله بن عباس علي علي رضي الله عنه ، وقيل لابن عباس : أين علمك من عمك؟ . . فقال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط . .

* * *

قال ابن أبي الحديد : « ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف ، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنده يقفون ، وقد صرح بذلك الشبلي والجنيد وسرى وأبو زيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم ، ويكفيك دلالة علي ذلك : الخرقه التي هي شعارهم إلى اليوم ، وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام . . » .

وقد جمع « نهج البلاغة » نماذج شتى من الكلمات التي تنسب إليه ويصح أن تحسب أصلاً « للعلم الإلهي » أو لأسرار التصوف في صدر الإسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية . وربما وقع الشك في نسبة بعض الكلمات إلى علي رضي الله عنه ؛ لأنها تجمعت بعد عصره بزمان طويل وامتزج بها ما لا بد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده . . ولكن شيئاً على هذا النهج لا بد أن يكون قد صدر منه حقا حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذي تواترت به الأقوال ، وأجمله ابن أبي الحديد فيما تقدم . .

ولنا أن نقول إنه كان رضي الله عنه يتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصا في عرفان إسلامه وتقرير إيمانه . فكانت نظرته إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ ، فكلامه عن الطاووس والخفاش والزرع والسحاب إنما هو الدرس القرآني الذي وعاه من أمر الكتاب بالنظر في المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها كالتمل والنحل والطيور والأجنة في الأرحام . فهو تلميذ ربه جل وعلا في قوله عن الخفاش : « من

لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش التى يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حى ، وكيف عشت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدى به فى مذهبها .. فسبحان من جعل الليل لها نهارا ومعاشا . والنهار لها سكنا وقرارا ، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الأذان ، غير ذوات ريش ولا قصب .. تطير وولدها لاصق بها لا جن إليها ، يقع إذا وقعت ، ويرتفع إذا ارتفعت ، لا يفارقها حتى تشتد أركانه ، ويحمله للنهوض جناحه ، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه ، فسبحان البارئ لكل شيء على غير مثال خلاف غيره .

ومثله قوله عن الطاووس : « ومن أعجبها خلقا الطاووس الذى أقامه فى أحكم تعديل ونضد ألوانه فى أحسن تنضيد ، بجناح أشرج قصبه وذنب أطال سحبه ، إذا درج إلى الأتلى نشره من طيه ، وصما به مظلا على رأسه .. وقد ينحسر من ريشه ويصرى من لباسه فيسقط تترى وينبت تباعا ، فينحت من قصبه نحتات أوراق الأغصان ، ثم يتلاصق ثانيا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون فى غير مكانه » ..

ونحن لا نستغرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفى على نحو من الأنحاء فى عصر الإمام على^ع رضى الله عنه ؛ لأنه كان عهدا نبت فيه أصول الفرق الإسلامية جميعا من الخوارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتنامخ الأرواح والمجاهدين فى قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب .. فأقرب شيء إلى المعقول أن يكون إمام العصر كله قدوة فى الاجتهاد والنظر وعتوانا للتوازع التى تفرقت بين أهل زمانه وتعبيرا صادقا لتفكيره ووعيه ، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التى قدمناها وإن لم تكن هى إياها بالنص والتفصيل ..

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الإمام على سجيته مؤثرا للاجتهاد ما استطاعه ، معرضا عن التقليد ما استغنى عنه ، فوافق الخلفاء من قبله فى أمور وخالفهم فى أمور ، وأبى أن يأثم بعملهم فيما يراه وما لا يراه ، وأوصى

ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال : « . . اعلم يا بنى أن أحب ما أنت أخذ به إلى من وصيتى تقوى الله والاعتصام على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آباءك والصالحون من أهل بيتك ، فإنهم لم يدعوا أن نظروا إلى أنفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر . . فإن آبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم ، لا بتورط الشبهات ، وعلق الخصومات ، وابتدئ قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بإلهك ، والرغبة إليه فى توفيقك ، وترك كل شائبة أوجتكت فى شبهة أو أسلمتكم إلى ضلالة ، فإن أيقنت أن قد صفا قلبك ، وعم رأيك فاجتمع ، وكان همك فى ذلك همأ واحدا ، فانظر فيما فسرت لك . . » .

وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعريف بإسلام على كما ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه . . فإنما هو إسلام المسلم « المطبوع » الذى يبتكر دينه لأنه يعتمد فيه على وحى بصيرته وارتجال مزاجه ، وإنما هو إسلام الحكيم المجتهد الذى يرجع فى الحكمة والاجتهاد إلى رياضة النفس على سنة النساك وتمحيص الفكر على سنة العلماء ، وإنما هو إسلام الرجل الذى أتيح له أن يتلمذ لربّه ويتربى فى حجر نبيّه ويصبح إماما للمقتدين من بعده . .

الفصل السابع

عصر الإمام

كانت الظاهرة الكبرى في عصر « علي » ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله ، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية ، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التي أريقته في حروبها ..

فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الإسلامية .

وعصر عمر كان هو العصر الذي تم فيه إتمامها ..

وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الإسلامي بعد نشأة الدولة الجديدة . فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي تولاها بعض الطبقات المرشحة للرياسة من العلية وأشباهاها ..

أما عصر علي فكان عصرًا عجيباً بين ما تقدمه وجاء في أعقابه أو هو لم يكن عجيباً ؛ لأنه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجرى عليه ، فلم يثبت كل الشبوت ولم يضطرب كل الاضطراب لأنه كان بناءً جديداً في مسيل التمام ، ولم يكن بناءً متداعياً فكله هدم واندثار ، ولا بناءً قائماً مفروضاً منه فكله رسوخ واستقرار .

غير أن العجيب فيه حقا أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين : في أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعي والرضا في بقائه وتدعيمه ، وفي الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعي والتحفز لتقويضه وتحويله .

أحدهما ، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي ، كان قسم معاوية بن أبي سفيان في الشام وما جاورها .

والآخر ، وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعي ، كان قسم علي بن أبي طالب في الجزيرة العربية بجملة أبحاثها .

كانت الشام بمعنى من المعانى أرضاً أموية فى عهد الجاهلية فلجأ إليها أمية جد
الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة ، وقصد إليها أبناؤه متجربين أو مهاجرين
إلى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية .

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبى سفيان أن يتولى
الإمارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبى بكر الصديق ، وخلفه أخوه معاوية
من قبل الخليفة عمر ، فلم يزل مقيماً على إمارتها بضع عشرة سنة إلى مبايعة على
بإخلافه بعد مقتل عثمان ، فاتسع له من فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال مهد
لتأسيس السلطان الأموى الذى لا ينازعه منازع من حوله ، ولم يزل منذ توليها
عاملاً على البقاء فيها واصطناع الأعوان المؤيدين له فى حكمها ، فلم يتوان فى
استرضاء رجل يتفقه رضاه ، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الاتباع
والأجناد ، بل كان يرضى كل من وسعه إرضاءه ، وقد وسعت ثروة الشام كل
صاحب حاجة مقيم عنده أو ساج إليه . .

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قصده أقرب الناس إلى خصومه وأولاهم
باجتنابه والنقمة عليه . . ومنهم عقيل أخو على بن أبى طالب ، وعبد الله بن
عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن زعنة ، وعمرو بن العاص ، وأناس من هذه الطبقة
بين الشرفاء وذوى الأخطار .

أراد عقيل من أخيه ما لا يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس له بحق ،
فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول : « إن أخى خير لى فى دينى ، ومعاوية خير
لى فى دنياى » وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن على والمقربون من معاوية
بالنسب والرجاء .

قد همه إرضاء السواد والعامّة ، كما همه إرضاء الشرفاء وذوى الأخطار . . «وبلغ
من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلاً من أهل
الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق فى حال متصرفهم عن صفيين . فتعلق به
رجل من دمشق فقال : هذه ناقتي أخذت منى بصفيين فارتفع أمرهما إلى معاوية
وأقام الدمشقى خمسين رجلاً بينة يشهدون أنها ناقته . . ففضى معاوية على
الكوفى وأمره بتسليم البعير إليه ، فقال الكوفى : أصلحك الله إنه جمل وليس

بثاقة . فقال معاوية : هذا حكم قد مضى ، ودس إلى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع إليه ضعفه وبره وأحسن إليه ، وقال له : « أبلغ علياً أنى أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل » .

ولقد بلغ من أمرهم فى طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء وأغاروه رعوسهم عند القتال وحملوه بها (١) .

فإن كان فى هذه القصص بعض المبالغة فهى مبالغة الفكاهة الموكلة بتكبير الملامح ليراها من غفل عنها ، وليست مبالغة الخلق والافتراء .

وما هى إلا سنوات على هذه الوتيرة حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعى الجديد ، راغب فى تدعيمه ووقايته من نذر الخطر والزوال .

وعلى قدر هذا الدأب الشديد فى اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله فى انتقاء أسباب التمرد ، والإخلال بالنظام ، كما نسميه فى هذه الأيام . .

فما سمعت قط صبيحة فتنة إلا بادر إليها بما يسكنها ويردها إلى طلب الاستقرار والدوام . فمن أجدى معه المال أسكته بإغداق المال عليه ، ومن كان من أهل الجِد والإخلاص فى العبادة والزهادة فهو محتال على إقصائه أو نفيه من الشام بحيلة يوافق عليها شركاؤه فى المصلحة ولا تعييه .

حتى بعض الزهاد على هذا الترف الذى استفاض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صبيحة أبى ذر الغفارى بالتكبير ، وطلق يطالب الأغنياء بالإنفاق فى سبيل الله ، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأغنياء ما يلقونه من نذيره أو بشيره : « وبشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » .

فأشفق معاوية من مغبة هذه الصبيحة وأرسل إلى أبى ذر ألف دينار يسكته بها إن كان ممن يسكتهم الغنى عن الأغنياء ، فما طلع النهار حتى كانت الدنانير فى أيدي المعوزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون إليه ، ثم صلى معاوية الصبح وأرسل إلى الداعية رسولته الذى حمل إليه الدنانير يقول

(١) مروج الذهب للمسعودى : الجزء الثانى .

له : « أنقذ جسدي من عذاب معاوية فإنه أرسلني إلى غيرك فأخطأت بك . فقال له : يا بني ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنائيرك دينار . . ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها » . . فعلم معاوية أن الرشوة هنا لا تغني عن القسوة ، وكتب إلى الخليفة أن أيا ذر أعقل به فلا طاقة له بالصبر عليه ، فأناه الإذن بنفى أبي ذر من الشام إلى المدينة ، ثم ضاقت به المدينة أيضا فنفى منها إلى قرية من أرياضها حيث لا يسمع له دعاء .

* * *

وصنع بعبد الله بن سبأ - صاحب القول برجعة النبي إلى الدنيا ووصاية عليّ على الخلافة - مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعياه ، فلما يش منه ومن ترغيبه أو ترهيبه ضيق عليه ثم أقصاه . .

والتفت إلى من سماهم أهل الفتنة من طلاب الإصلاح والتبديل فكتب في أمورهم إلى الخليفة يقول : « إنه قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان ، أضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ، وليسوا بالذين ينكون أحدا إلا مع غيرهم . . » .

ثم أخرجهم من دمشق إلى غيرها مستريحا منهم بالنفى والإقصاء ، كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هي التي ينبغي لها أن تستريح .

وهكذا تعاقبت السنون وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب الرضا والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح إلى التغيير ، حتى تميزت له الشام عند مبايعة علي وفيها أعظم ما يأتي في مثل ذلك العهد من دواعي السكينة واستدامة الحال ، وأقل ما يتأتى فيه من شواجر الفتنة والعصيان . .

* * *

أما على فقد شاءت المصادفات أن تنعكس الآية في حصته من الدولة الإسلامية أيما انعكاس ، فأوشكت أن تنعدم فيها دواعي الرضا والاستدامة ، وأوشكت أن تتم فيها شواجر الفتنة وما نسميه اليوم بالإخلال بالنظام . .

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة ، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهؤلاء . حتى ضاق به للمقام في الحجاز وأوى إلى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار » .

وكافت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ، وينظرون إليهم نظرتهم إلى القوى المستأثر بجاء الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة ، وهي حالة كان أحجى بالولاية أن يخفوها ويتلطفوا في إصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من إصلاح وتبديل ، ولكنهم على تقيض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحدبها حتى قال سعيد بن العاص والى الكوفة : « إنما السواد بستان لقريش ! » .. وظهر هذا السخط من أثره قريش في خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين تشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين علي وأنصاره ، فقام في الجمع رجل من عبد القيس يقول :

« يا معشر المهاجرين ! .. أتم أول من أجاب رسول الله ﷺ فكان لكم بذلك فضل .. » إلى أن قال يشير إلى خلافة أبي بكر : « ولم تستأمرونا في شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين في إمارته بركة ، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا في ذلك . فرضينا وسلمنا . فلما توفي جعل أمركم إلى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا ، فما الذي نقمتم عليه فنقاتله ؟ » ..

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه في صدر مقاله ، فكيف بكلام الرجال ممن ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المناقسة على الشهادة به في معرض الخصومة ؟ .. ولعل الناقدين بهذا الغيظ كانوا يشوبون إلى بعض الصبر والتجاوز لو أنهم وجدوا من يشكون إليه فيحسن الإصغاء والاعتراف لهم بالحق في دعواهم ، ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم إلى العصمت راغمين ، فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا أن حمته عشيرته وصحبه . ثم وثبوا عليه في الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين .

* * *

وكان العبيد والموالي والأعراب المحرومون حانقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الإنصاف ، ولقد يكون معظم المتأمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالي والأعراب المحرومين . فلما طُلب على* بالاقتصاص منهم لمقتل عثمان قال : « .. كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ .. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا فهلا ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ » .

وقالت السيدة عائشة ، رضى الله عنها : « أيها الناس ! .. إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس .. والله لأصبح عثمان خير طباق الأرض أمثالهم .. » .



وكان مع على* جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقهاء والشريعة ، وهم خلق كثير يعدون بالألوف ويتفرقون في الخواضر والبوادي ، ولا يزالون كأنبياء بنى إسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين ، متكرين لكل خلاف ولو يسير في إقامة أحكام الدين ، لا يرضون عن الدنيا ولا عمن رضى بها من طلابها ، ولا يستمعون إلى أمر إلا أن يكون في رأيهم وفاقا لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة كما يعتقدونها . وطالما وقفوا بين على* وبين القتال لأنهم لا يستطيعونه ، أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجنون القرآن عن قبوله .. فإذا كان أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون إلا ما أجازوه واستوجبوه ؛ لأنهم خرجوا في الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر ، فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسألون في جماعة . وهم أقرب الناس في ذلك المهد إلى الجهر بالنداء والتبديل والتغيير ، والإصغاء إلى وحي الضمير قبل دعاء الأمير .

واجتمع مع على في الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع إليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحمونه عليها . فمنهم من كان يقول لعلى* : نبايعك على أنا شركاؤك ، ومنهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله ،

ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليا باسم عثمان ، تمحلا للذرائع
الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور . .

* * *

وقد كان أبو بكر وعمر يسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا
فى الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشجر بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها ، ثم
ينصدع شمل الأمة بالتشيع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم ، وأوصى
أبو بكر خليفته من بعده قائلا :

« . . احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفتحت أجوافهم
وطمعت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه ، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد
منهم فإياك أن تكونه ، وأعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله » . .

فلما سارت الخلافة إلى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل
حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره ، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب .
وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن عوف : « ورأيت الدنيا قد
أقبلت . . حتى تتدخلوا ستور الحرير ونضائد الديباج ، وحتى يالأم أحدكم
بالاضطجاع على الصوف الأذرى^(١) كما يالأم أحدكم إذا نام على حسك السعدان » .

* * *

روى المسعودى أنه « فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الفضياع والمال ، فكان
لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة
ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة ،
وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف
فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية
السراة أكثر من ذلك . وكان على مريط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله
ألف يعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة
وثمانين ألفا ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفتوس

(١) منسوب إلى أذربيجان .

غير ما خلف من الأموال والضياع . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة والإسكندرية . . وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيّد داره بالمدينة وبنّاها بالجصن والأجر والساج ، وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع مسكها وأوسع قضاها وجعل على أعلاها شرفات ، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مخصصة للظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم .

* * *

هؤلاء أيضا أصبحوا في حصة عليّ من الدولة الإسلامية عنصرا من أقوى عناصر القلق والتبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة ، خلافا لأمثالهم في معسكر معاوية .

فالذي يغلب على أصحاب الثروات في كل مجتمع أنهم أنصار الحالة القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسي أو الاجتماعي على التخصيص ، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود في مجتمع عليّ فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان الثورة والتغيير ولو في سرائر القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهور وفي الثورة بفعل محسوس ؛ لأنهم عرفوا عليّا من قبل ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد .

عرفوا مذهبه في حساب الولاية ومذهبه في حساب الخلافة ، فلما كان واليا لليمن أبى عليّ بعض الصحابة أن يركبوا إبل الصدقة وقال لهم : إنما لكم منها سهم كما للمسلمين ، ثم لام العامل الذي أذن لهم أن يركبوها في غيبته وهو منصرف إلى الحج . وشاعت هذه القصة لأن أناسا شكوه إلى رسول الله ﷺ ، فأنكر شكواهم منه وقال : « لقد علمت أنه جيش في سبيل الله » .

* * *

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب عليّ عليه ؛ لأنه أباح للعمال والولاة ما ليس بمباح في رأيه ، ولقى بالعتاب كل صحابي من إخوانه جمع مالا واستهوته فتنة البذخ والشراء .

وليس مذهبه واليا ولا مذهبه خليفة بهربح أولئك الأغنياء الذين ذاقوا حلاوة
الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه .

ولم يكن فى وسع على أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك ، وهو لا يشاؤه ولا
يحله لنفسه وقد أنكره على غيره ؛ لأنه إذا غض نظره لم يستطع أن يغض الأنظار
المفتوحة التى ثارت بعثمان وبايعت علياً بعده ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما
أثارهم عليه .

فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون ، ولا دعاة الدين راضون مطيعون ، ولا الفقراء
والجهلاء راضون مطيعون ، وما منهم إلا من هو قلق متوفز لا يسكن به سكن ولا
يلوم به قرار .

وكل أولئك كانوا فى حصبة على من الدولة الإسلامية ، ولم يكن لمعاوية فى
حصته شاجرة فتنة من هذه الشواجر ، بل كان له فى موضع كل واحدة منها دعامة
تمكين وتأيد .

وإن هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفى غنى عن علة أخرى من علل الفساد
والشقاق تضاف إليها .

ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التى اصططلحت على حصبة على من
الدولة الإسلامية . . فقد أضيفت إليها علة أخرى ، بل أضيفت إليها أكثر العلل
التي تبتلى بها دولة أو حكومة ، وهى اعتمادها فى مواردها على غيرها . .

فكانت موارد الشام فى الشام نفسها من خراج أو أنفال أو تجارة . أما موارد الحجاز
فقد كانت بعيدة منه وإن دخلت فى طاعته وجنحت إلى القوائم بالأمر فيه .
وكانت مصر والسواد من حصبة على ، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيرا لتعاقب الولاة
فيها ، ولم يستفد بالسواد كثيرا لتعاقب الفتن والغارات عليها . . وحسبك من هذا
داعية قلق وباعث مخافة ومبطل أمان وطمأنينة . .

* * *

وينبغى أن نذكر أن الحيلة فى هذا التقسيم قليلة ، وأن الحوادث هى التى
اختارت لكل حصبة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم إلى ولاية أمرها
و « كما تكونوا يول عليكم » . . ولا محل فى هذه القاعدة لحيلة أو اختيار . .

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقاه من معاوية ، ولم يكن أحد أشبه من على[ؓ] بقيادة الشكوى التى تطمح بأصحابها إلى التغيير .

إن شككا أناس غلبة قريش ، فعلى[ؓ] كان يشكو منها ويظن الظنون بحقدتها عليه وتكراتها لحقه ، ويقول فى كتاب من كتبه إلى أخيه : « . . ودع عنك قريشا وتركاضهم فى الضلال وتحولهم إلى الشقاق ، فإن قريشا قد أجمعت على حرب أخيك إجماعها على حرب رسول الله ﷺ قبل اليوم . . » .

وإن جاءت صيحة الإصلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب الحفاظ والقراء والنسك فعلى[ؓ] كان إمام أهل العلم والقراءة ، وأحق من يتكلم بتفقيه أو تفسير .

وإن جاءت من ضميم الفقراء فعلى[ؓ] فقير ، أو من تهافت الولاة على المال فعلى[ؓ] يبغض هذا التهافت كما يبغضه أضعف الفقراء ، عن زهد فيه لا عن قلة الوسائل إليه . .

فما شككا شكك قط إلا وعلى[ؓ] له فى شكواه ، وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التى قامت على التبرم بالحال والطموح إلى التغيير ؟ . . وأية حيلة له إلى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير ؟

* * *

كان على[ؓ] نموذج أصحابه الأعلى ، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى . وكانا لأجل ذلك فى موضع رشحتهما له الحوادث قسرا قبل أن يرشحا له بإرادة مريد . وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما فى الرأى والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبدا ، وما لم نذكر أبدا أن أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه ، وأن الآخر كان يعمل والحوادث علة فى يديه . .

* * *

الفصل الخامس

البيعة

بويغ لعلی بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية في تاريخ الإسلام ، وهي مقتل الخليفة عثمان بن عفان في شيخوخته الواهنة . بعد أن حصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظماً لو أمهله القتل بضعة أيام ..

وأفجع ما كان في هذه الحادثة ، أنها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد في اتقائه لأن المسؤولين عنه كثيرون متفرقون في كل جانب يناصروه أو يعاديه .. فإذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء ، وإذا بطل الشر الذي فيه اختيار لم يبطل الشر الذي لا اختيار فيه ، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوين متساويين ، فمن الأعمال المؤسفة التي عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليست هي في تعجيلها ولا في سوء مقبتها بأهون من أعمال الأعداء ..

مضت السنون الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تفضى في عهد خليفة ..

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعي ومن جانب الرعية ، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها ، وإن ظهرت عواقبها طارئات .

وتتعدد الأسباب التي أوجبت ذلك التغيير بعد السنوات الأولى ، ولكنها قد تنحصر في سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ، وهما إمعان الخليفة في الشيخوخة ، واستمرار الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد والمتاع .

ولقد كتبت الأسفار المطولات في إحصاء المآخذ على عثمان رضي الله عنه ، وكتبت الأسفار المطولات في تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعدار وتفسيرها على أحسن الوجوه ؛ لأن المسألة خرجت من عداد المسائل التاريخية ، وانتقلت إلى ميدان النزاع بين الأحزاب والمذاهب وأقارب الجدل

والحجاج .. فجعلها الشيعيون وأهل السنة ذريعة إلى تأييد مذهب وإتكار مذهب في الخلافة والخلفاء ، وراح الأولون يبالغون في الاتهام كما يبالغ الآخرون في الدفاع ، ولا طائل هنا من شرح هذا وذاك ، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن .. وإنما المرجع فيه إلى تاريخ عثمان ..

إلا أننا نجتزئ هنا بالإشارة إلى التدمير الذي أثار الفتنة ، والإمام بأسبابه عند أصحابه .. فمما لا شك فيه أنهم تدمروا لأسباب تشيرهم وإن طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطأ والصواب .

أهم هذه الأسباب ، أنه خالف بعض السنن التي اتبعها النبي عليه السلام في الأذان والصلاة ، وأنه أدنى أتاسا من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقصاهم عن المدينة .. فاستدعاهم إليه بعد استخلافه وأخذق عليهم المنع والأموال وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته في الولاية والعمالة ، ومنهم من اتهموه بإقامة الصلاة وهو سكران . وأنه منع سفيان بن حرب مائتي ألف درهم ومنع الحارث بن الحكم زوج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال ، وأنه توسع في بناء القصور ، وحرم بعض الصحابة ، وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب إهانة وإيجاع ..

ولم تنقض سنوات على هذه الحال حتى كثر المترفون من جانب والمتربون من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائماً في أمثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء والتزيد بالتهم واللجاجة ، وإضافة الأوهام إلى الحقائق في خلق ذرائع الخلاف والشحناء .

ويدل على خطر مسألة الشروة في هذه الفتنة ، أن الناس تألبوا على الخليفة مرة .. فأرسل في طلب علي ليصرفهم عنه ، فلما قدم إليه استأذنه في إعطائهم بعض الرغد العاجل من بيت المال ، فأذن له .. فانصرفوا عن زعماء الفتنة ، وهدءوا إلى حين ..

ثم توافد المتدمرون من الولايات إلى المدينة مجندين وغير مجندين .. وتولى زعامة المتدمرين في بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة ، كتبوا صحيفة وقمروها وأشهدوا فيها المسلمين على مأخذ الخليفة .. فلما حملها عمار بن ياسر

إليه ، غضب وزيره مروان بن الحكم ، وقال له : « إن هذا العبد الأسود قد جراً عليك الناس .. وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه » فضربوه حتى غشى عليه .

وفى مرات أخرى ، كان الخليفة يصفى إلى هذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه ، ثم يعلن التوبة إلى رعاياه ، ويؤكد لهم الوعد بإقصاء أولئك الأعوان وإخلافهم فى أعمالهم بمن يرضى المسلمين ، ويرضى الله .

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته ، فيبقيهم حيث كانوا ويملى لهم فيما تعودوه من الترف والنكايه ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم .. أيقض أولئك الأعوان إلى المسلمين ، حتى من أهل الخليفة المقربين .

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم ، فإذا عادوا إلى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضرباً على ملا من الشاكين الذين ينتظرون الإنصاف .. فيعود المصرويون إلى الشكوى ، وينصرهم أجلاء الصحابة عند الخليفة ، ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسىء إليهم . فإذا توجه الوالى الجديد إلى مكانه ، إذا فى الطريق رسول يحمل خطاباً للوالى المعزول ، يأمره فيه بقتل من يقد إليه من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية . ويقره فى مكانه أ

حدث هذا مع وفد مصر ، واختلفت الأقاويل فى تأويله من متهم للخليفة ، ومتهم لمنافسيه على الخلافة ، ومتهم لوفا الشكوى الذى عشر بالخطاب ، ومتهم لمروان بن الحكم - عنصر السوء فى هذه المأساة كلها - وهو أولى الأقاويل بالترجيح والتصديق ، إذ كان أيسر شىء على مروان لو كان بريئاً من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب ، وفى كشف هذه الحقيقة إبراء له ، وتعزيز لسلطان الخليفة ، وفضيحة لأعدائه ، وإدحاض لحجة الفتنة ، ودعوة الإثارة والتحرىض .. ولكنه أهمل السؤال ، وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه ..

* * *

وظل الخليفة والشوار يشتبكون ويتحاجزون .. لاهم فى حرب ، ولا هم فى سلام ..

وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منثر بالشر ، زاد الخليفة ضعفا ، وزاد الثوار ضراوة ،
وزاد التوجس بينهم استفحالا واتسع مع التوجس مجال السعاية والإرجاف بين
الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله . .

وتوسط على بين الخليفة والثوار ، فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم
ويعزل العمال المكروهين .

فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة على . . . ومنهم من يسئ الظن ،
ويرى أن الخليفة إنما يستمهلهم في انتظار المدد الذي طلبه من الأمصار . .
وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى . .

وتفاقت الفتنة ، وأحاط الثائرون بببيت عثمان . . لا يقنعون في هذه الكرة إلا
أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم ، أو يعزلوه عنوة .

وجاء في رواية « شداد بن أوس » إن علياً رضى الله عنه ، خرج من منزله يومئذ
معتماً بعمامة رسول الله متقلداً سيفه ، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من
المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم ، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه
على . . وقال بعد تمهيد وجيز : « لا أرى القوم إلا قاتليك ، فمرنا فلنقاتل » . فقال
الخليفة : « أنشد الله رجلاً رأى الله حقاً ، وأقر أن لى عليه حقاً ، أن يهريق في
سببى ملاء محجمة من دم أو يهريق دمه في » فأعاد على القول ، فأعاد عليه هذا
الجواب . . ثم خرج من عنده إلى المسجد . وحضرت الصلاة فنادوه : « يا أبا
الحسن . تقدم فصل بالناس » فقال : « لا أصلى بكم والإمام محصور ، ولكني
أصلى وحدي » ، ثم صلى وحده وانصرف إلى منزله ، وترك ابنيه مع أبناء زمرة
من الصحابة في حراسة دار الخليفة ، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذى خطر
في الإسلام إن وصلوا إلى الخليفة باعتداء . . عساهم إن علموا ذلك أن يتهيبوا
الركب ، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه .

إلا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاوله فتسوروا الدار وولغوا
في دم ظهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لعز عليهم أن يسفكوه .



وللإفاضة في مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل ، مكان غير هذا المكان ، وكتاب غير هذا الكتاب ..

فإنما نحن في صدد الموقف الذي وقفه على من هذه الجريمة ، وما يتم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريره وجهه .. وإنما يعني هنا أن نسأل : أكان عليه وزر في هذه الجريمة ؟ .. أكان في مقدوره عمل صالح يعمله لإنقاذ عثمان من هذا المصير ؟ ..

ونحن لا نسأل هذا السؤال لنرجع في جوابه إلى جدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين .. فقد سال في الخلاف على هذا السؤال دم غزير ومداد كثير ، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور الذي لا رى فيه .

ليس علينا هذا ؛ لأننا نستطيع أن نعبره إلى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها ، وفيها الغنى - ولو بعض الغنى - عن الإسهاب في السؤال والجواب ..

فالحقيقة التي لا يطول فيها الريب ، أن علياً رضي الله عنه لم يكن أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه ، لو شاء عثمان أن يستمع إلى بعض الناصحين إليه .

فقد كان معاوية والياً عزيزاً ، له جند يرسله إلى الخليفة فيحميه في الشدة اللازمة وإن أباه ، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعلي ولا لأحد من خلائته ، وكان هو أقمن أن يميل بعثمان إلى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة إلى مكة أو الشام ، لو أراد .

وكان في وسع عثمان أن يرحل إلى مكة ، وهي أمن له من المدينة ، أو يرحل إلى الشام ، وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويهد الثوار في العصيان .. أما على فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة المخوفة بالمصاعب من كل جانب ..

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجماع ، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس .. كلما حيل بينها وبين الانطلاق .

كان ناقداً لسياسة عثمان وبطانته التي حجبتها عن قلوب رعاياه . . ناصحاً للخليفة بإقصاء تلك البطانة ، وتبديل السياسة التي تزينها له وتخريه باتباعها وصم الأذان عن الناصحين له بالإقلاع عنها .

وكان مع هذا أول من يطالب بالفتوح ، كلما هجم الشوار على تلك البطانة ، وهموا بإقصائها عنوة من جوار الخليفة .

كان الشوار يحسبونه أول مسئول عن السعي في الإصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الشوار .

ولم يكن في العالم الإسلامي كله رجل آخر يعانى مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاصاً

وضاعف هذا الحرج الشديد الذي كان يلقاه في كل خطوة من خطواته ، إنه لم يكن بموضع الحظوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب الإصغاء إلى الرأي والعمل بالمشورة . وإنما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأولى بين المقربين إليه . . لا ينجو من إحدى جناياته التي كان يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود إلى الخليفة فيوقع في روعه أن علياً وإخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتكليب الثائرين عليه ، وأنه لا أمان له إلا أن يوقع بهم ويعرض عنهم . . ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه ، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة في دوامه . .

ففي المؤتمر الذي جمعه الخليفة للتشاور في إصلاح الأمر وقمع الفتنة ، لم يكن على مدحواً ولا منظوراً إليه بعين الثقة والمودة . . بل كان المدعوون إلى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه . . وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص ، وهم في جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم على جمهرة الصحابة ، وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار .

قال لهم عثمان : « إن لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وإنكم ووزرائي ونصحايتي وأهل ثقتي ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالي ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون . . فاجتهدوا رأيكم وأشيروا على » . .

قال معاوية : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم ، وأنا ضامن لك ما قبلي » .

رأى رجل يريد أن يحتفظ بولايته ، ولا يريد أن يغضب أحدا من أصحاب الولايات في غير مصره ..

وقال عبد الله بن عامر : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن مجمهرهم في المغازي حتى يذلوا لك .. فلا تكون همة أحدهم إلا نفسه .. » .

رأى رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها ، ثم هو لا يبالي أن يخلق جهاداً تسفك فيه الدماء في غير جهاد مطلوب .

وقال عبد الله بن سعد : « أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع ، فأعظمهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم » .

رأى رجل يشتري الرضا بالرشوة ، ويستبقى ما في يديه منها .

وقال عمرو بن العاص ، وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع في ولاية يرجوها : « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن تعدل .. فإن أبيت ، فاعتزم أن تعتزل .. فإن أبيت ، فاعتزم وامض قدماً » ..

رأى رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار ، ولهذا بقي حتى تفرق المجتمعون .. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره : « والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز علي من ذلك .. ولكنني قد علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي .. فأقود إليك خيراً وأدفع عنك شراً .. » .

* * *

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان ، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلزمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه ، وفي مقلمتهم علي وإخوانه .. ثم تفرق المؤمنون وقد رد عثمان كل عامل إلى عمله ، وأمره بالتضييق على من قبله ..

فكانت حيلة علي في تلك المعضلة العصبية جد قليلة ، وكان الحول الذي في يديه أقل من الحيلة .

غير أنه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالتقيضين ، معصوب بالتبعين ، مستول عن الخليفة أمام الثوار ومستول عن الثوار أمام الخليفة ..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة ، يتخطون الخليفة إليه ويعرضون الخلافة عليه .. فلقيهم أسوأ لقاء ، وأنذرهم لئن عادوا إليها ل يكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم ، جزاء العصاة المفسدين في الأرض .

وجاموه مرة أخرى وحجتهم ناهضة ، ودليل التهمة التي يتهمون بها بطانة عثمان في أيديهم .. جاموه بالخطاب الذي وجدوه في طريق مصر مع غلام عثمان ، يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً وأجابهم إلى تولية العامل الذي يرضيهم ، فلم تخدعه حجتهم الناهضة ، ولم يشأ أن يلقى لهم في ثورتهم واحتجاجهم من جزاء ذلك الخطاب المشكوك فيه ، وجعلهم متهمين مستولين بعد أن كانوا متهمين سائلين ، فقال لهم : « وما الذي جمعكم في طريق واحد ، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم إلى جهة ؟ » ..

* * *

وكانت حيرة علي[ؑ] بين التقريب والإبعاد ، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار .. فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه ، ويستدعى إليها تارة ليبردع الناس عن مهاجمة الخليفة ، فلما تكرر ذلك ، قال لابن عباس الذي حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله في ينبع : « يا ابن عباس .. ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جماً ناضحاً بالغرب - أي الدلو - أقبل وأدير .. بعث إليّ أن أخرج ، ثم بعث إليّ أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إليّ أن أخرج .. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون أثماً » ..

ثم بلغ السيل الزبى ، كما قال عثمان رضي الله عنه ، فكتب إلى علي[ؑ] يذكر له ذلك ويقول : « إن أمر الناس ارتفع في شأنى فوق قدره .. وزعموا أنهم لا يرجعون دون دعى ، وطمع فى من لا يدفع عن نفسه .

فإن كنت مأكولاً فكن خيراً أكل وإلا فأدركنى ولما أمسق

فعاد علي ، وجهد في إنقاذ الخليفة جهده ، ولكنه كان يعالج داء استعصى
دواؤه وابتلى به أطباؤه . . فكلهم يريد تغييراً يأتي من قبل الغيب أو يأتي من قبل
الآخرين ، ولا يغير شيئاً من عمله أو مستطاعه ، ولعل الخليفة لو شرع في التغيير
المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى ، لغوات أوائه وانطلاق الفتنة من أعنتها ،
وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر في النفوس ولغطت به الأفواه . .

وعد الخليفة وعده الأخير . . ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال .

وأحاطت به بطائنه كدأبها في أثر كل وعد من هذه الوعود ، تنهاه أن ينجزه
وتخيفه من طمع الناس فيه ، إن هو ألحزم ما وعدهم حين توعدوه .

وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها العقول . .
فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء علي والإعراض عن هذه البطانة ، ولم
يكن أيسر علي بطائنه من إقناعه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة ضعيفة ،
فكان مروان يقول له : « والله لإقامة علي خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة
تنحرف عليها » . .

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس ، فلا يكلمهم إلا بالزجر والإصرار . .
كما قال لهم يوماً : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب ، شأتم
الوجوه . . جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا . . ارجعوا إلى منازلكم ، فأنا والله ما
نحن مغلوبين علي ما في أيدينا » .

إذن بطلت الروية ، ولم يبق إلا لحظة طيش لا يدري كيف تبدأ ، ولا يؤتى لأحد
إذا هي بدأت أن يقف دون منتهاها .

* * *

هجم الثوار علي باب الخليفة ، فمنعهم الحسن بن علي وابن الزبير ومحمد بن
طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة . .

واجتلدوا فمنعهم عثمان ، وقال لهم : « أنتم في حل من نصرتي » وفتح
الباب ليمنع الجناد حوله . . ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان أن يعتزل ،
فرماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله ، فجن جنون الثوار يطلبون القاتل

من عثمان ، وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم : « لم أكن لأقتل رجلا نصرني وأنتم تريدون قتلى .. » وعزَّ على الثوار أن يدخلوا من الباب الذي كان قد أغلق بعد فتحه ، فاقتحموا الدار من الدور التي حولها .. وأقدموا على فعلتهم الشكراء بعد إحجام كثير .

لو لم تقع الواقعة في هذه اللحظة الطائشة ، لوقعت في لحظة غيرها لا يدري كيف تبدأ هي الأخرى .. فلإنما هي بادرة واحدة من رجل واحد تسوق وراءها كل مجتمع حول الدار من المهاجرين أو المدافعين ، ولا أكثر من البوادير بين ثوار لا يجمعهم رأى ، ومدافعين لا يضبطهم عنان ..

وتقل الخبير إلى المسجد ، وفيه على جالس في نحو عشرة من المصلين ، فراحه منظر القادم وسأله : « ويحك ما وراءك ؟ » قال : « والله قد فرغ من الرجل » فصاح به : « تبا لكم آخر الدهر .. » وأسرع إلى دار الخليفة المقتول .. فلطم الحسن ، وضرب الحسين ، وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه : « كيف قتل أمير المؤمنين ، وأنتما على الباب ؟ » فأجاب طلحة : « لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل » .

* * *

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه : « بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان ، وأميرها الغافقي بن حرب ، يلتمسون من يجيئهم إلى القيام بالأمر ، والمصريون يلحون على علي وهو يهرب إلى الحيطان^(١) ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيئهم ، فقالوا فيما بينهم : لا نولى أحدا من هؤلاء الثلاثة . فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص فقالوا : إنك من أهل الشورى . فلم يقبل منهم ، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا في أمرهم . ثم قالوا : إن نحن رجعنا إلى أمصارتنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم .. فرجعوا إلى علي فألحوا عليه ، وأخذ الأشر بيده فبايعه وبايعه الناس .. وكلهم يقول : لا يصلح لها إلا علي ، فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر ، بايعه من لم

(١) البساتين .

يبايعه بالأسس وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء . فقال قائل : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، ثم الزبير ، ثم قال الزبير : « إنا بايعت علياً والليح على عنقى والسلام . . » .

وهذا الخبر على وجازته ، قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان . . وربما كان أشدهم طلباً لها طلحة والزبير ، اللذان أعلننا الحرب على علي بعد ذلك . . فقد كانا يهدان لها في حياة عثمان ، ويحسبان أن قريشا قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمى ، وأن علياً وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله ، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تتول الخلافة إلى واحد من هذين . . أو إلى عبد الله بن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تيمم والزبير زوج أختها أسماء ، وفي تأييد السيدة عائشة لواحد منهما مدعاة أمل كبير في النجاح . .

على أن الرأي هنا لم يكن رأى قريش ، ولا رأى بنى هاشم . . فلو أن عثمان مات حتف أنفه ، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة لخليفة غير علي بن أبي طالب ، وجاز أن يختلف بنو هاشم . . فلا يجتمع لهم رأى على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة ، وهم : عقيل ، وعلي ، وابن عباس .



ولكنها الثورة الاجتماعية التي تنشأ رجلها دون غيره ولا محيد لها عنه . . فإن ترددت أيما ، فذلك هو التردد العارض الذي يرد على الخاطر لا محالة ، قبل التوافق على رأى جازم . . ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذي تتجه إليه وحده على الرغم منها .

فطلحة والزبير ، كانا يشبهان عثمان في كثر ما أخذه عليه المتحرجون في الدين ، وتردله الفقراء المحرومون . . كانا يخوضان في المال ، ولا يفهمان الزهد والعلم على سنة الناقلين المتزمتين ، فإذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووافق رجائهم . . فما هم بواجديه في غير علي بن أبي طالب ، وقد قال بحق : « إن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لمرض حاضر » ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطمعون في الخلافة مقالته عن العامة في انقيادهم إليه بغير رهبة ولا

رغبة .. فقد كان أولئك الخاصة جميعاً على رأى العامة فى حكومة عثمان
وطائفة ، وإن أخفى بعضهم لومه .. ولم يذهب بعضهم فى اللوم مذهب الثوار فى
التزق وسفك الدماء ..

وتعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هى أولى الحقائق بالتوكيد والاستحضار ،
كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد فى خلافة على رضى الله عنه .. فإذا هى
فهمت على وجهها ، فكل ما عداها مفهوم البواطن والظواهر منسوق الموارد والمصادر ..
وإذا هى لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانباً ، ويبحث الباحثون عن العلل
والعواقب فى غيرها فالعهد كله غامض مجهول ، وللموازن كلها منقوصة سواء فى
تقدير الرجال أو تقدير الأعمال ، وجزاز حينئذ أن يرمى على بالخطأ .. ولا خطأ
عنده يصبحه غيره فى موضعه ، وإنما هو حكم الموقف الذى لا محيد عنه . وجزاز
كذلك أن ينحل خصومه فضل الصواب ولا صواب عندهم ؛ لأنهم مضطرون إلى
ورود هذا المورد .. فكروا فيه أو طرقوه اعتسافاً بغير تفكير ..

* * *

قلم تكن المسألة خلافاً بين على ومعاوية على شىء واحد ، ينحسم فيه النزاع
باتتصار هذا أو ذلك .

ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين : أحدهما يتمرد ولا
يستقر ، والأخر يقبل الحكومة كما استجدت ويميل فيها إلى البقاء والاستقرار ..
أو هى كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت فى على بن أبى طالب ،
والدولة الدنيوية كما تمثلت فى معاوية بن أبى سفيان .

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر على .. فيحكم فى مكان معاوية ، أو
ينتصر معاوية فيحكم فى مكان على ، بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم
كيف تكون إذا تغلب واحد منهما على خصمه ؟ أتكون مبادئ الخلافة الدينية
أو مبادئ الدولة الدنيوية ؟ .. أتكون مبادئ الورع والزهادة أو مبادئ الحياة على
أساس الثروة الجديدة ، كما توزعت بين الأمتصار وتفرقت بين السراة والأجناد
والأعوان ؟

فلو أن علياً ملك الشام ومصر والعراق والحجاز ، وجرى في سياستها على سنة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكرى البلخ والإسراف لبقيت المشكلة حيث كانت ، ولم تكن هزيمة معاوية إلا ريشما يتجرد للدولة منازع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل معاوية .

ولو أن معاوية ملك المدينة إلى جانب ملكه ، وجرى في سياستها على سنة الحفاظ والقراء لما أرضاهم ، ولا انقاد له أحد من أشياعه ..

فالحسم حق الحسم هنا ، إنما هو تغليب مبادئ الخلافة ولا حيلة لعلي ولا لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه ، لو جهد له جهد الطاقة ..

* * *

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبسا متشابكا في عهد عثمان كان نصف ملك ونصف خلافة ، أو كان نصف زعامة دينية ونصف إمارة دنيوية ..

فوجب أولاً أن يتضح الموقف بينهما ، وأن يزول الالتباس عن فلق صريح ..

ووجب وقد زال الالتباس ، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان ، أن يبلغ الخلاف مداه .. ولن يزال قائماً حتى تكتب الغلبة لبدأ من المبدأين وحكم من الحكمين ، وليس لعلي أو معاوية على التخصيص .

هذه هي العلة الكبرى التي تنطوي فيها جميع العلل الظاهرة ..

وخلق بكل علة أخرى أن تكون تعلقة موضوعة يظهر صاحبها غير ما يبطن ، أو يتخدع في زعمه وهو غافل عن معناه ..

خذ للملك مثلاً علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على علي^ع ليطلبوه بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع علي^ع عنه . وقد كان عثمان كثيراً ما يقول : « ويلي من طلحة .. أعطيته كلنا وكلنا ذهباً وهو يروم دمي .. اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه » ..

وساء ظن الناس بتقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رأى يوم مقتله يرمى الدار ، ويقود بعض الشائرين إلى الدور المجاورة ليهبطوا منها إلى دار عثمان ،

وهو حديث يفتقر إلى السند الوثيق ، ولكنه ينم على ظن الناس بصداقة طلحة للخليفة المقتول .

وخذ لذلك مثلاً حجة معاوية حين علل ثورته بإتهام عليّ في دم عثمان ، وعلل إتهامه لعليّ بتقصيره في القود من الثائرين .. وهم ألوف يحملون السلاح ، وهو لم يسكن بعد إلى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين ، فماذا صنع معاوية بقاتلي عثمان حين صار الملك إليه ، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال ؟ إنه اتبع علياً فيما صنع ، وأبى أن يذكر الثار المقيم المقعد ، وقد ذكروه به وألحفوا في تذكيره . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صبيحة عائشة بنته وهي تبكي : « واأبتاه » فلم تزده هذه الصبيحة المثيرة إلا إصراراً على الإغضاء والإغفاء ، وقال لها يعزبها : « يا ابنة أخي .. إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حلعاً تحت غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره .. فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعليتنا تكون أم لنا ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين .. » .

ولو كانت الثورة كلها من أجل عثمان لما انتهت بهذا التسليم الهين .. ولكان عذر علي في بداية المحنة أعظم حجة ، وأحق بالقبول ..



أو خذ لذلك مثلاً علة عمرو بن العاص ، وقد كان أول الناصحين لعثمان بالاعتزال ، بل كان يخطب عثمان ليسترضى الناس ، وعمرو يصيح به من صفوف المسجد : « اتق الله يا عثمان ، فإنك قد ركبت أسوراً وركبناها معك .. فتب إلى الله نتب .. » ثم ترك عثمان في المدينة بين المؤتمرين به ومضى إلى فلسطين ، وسمع وهو يقول : « والله إنى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان » .

فكل علة للثورة على خلافة علي ، فهي تعلل موضوع يتخذ به قائله أو يتخذ به غيره .. إلا تلك العلة التي طوت فيها جميع العلل ظاهرها وخافئها وصريحها ومكثوبها ، وهي الخلاف بين مبادئ الخلافة الدينية ومبادئ الدولة الدنيوية ، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين .. وإن كان في ظاهره فصلاً بين رجلين ..

فلما بويع علي[ؑ] بالخلافة ، كانت هذه البيعة إيذانا بانقسام الحلقة بين النذيرين للصراع الأخير ، أو كانت إيذانا باصطفاف المتسابقين إلى غاية لا بد من بلوغها . . ولن تخطر على البال غاية لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على النحو الذي تهيأت له عناصر النظام الاجتماعي الجديد .

فأما انتهاء الملك في بدايته ، فقد كان بعيداً - بل كان عسيراً جداً في تلك الآونة - كما يعسر انطفاء النار وهي تهب بالاشتعال . .

وأما انتهاء الخلافة فهو الذي كان ، وهو الذي كان منظوراً أن يكون ، ولن يكون ضيره بمنظور . . فمن الفضول لوم علي[ؑ] على شيء من الأشياء التي أفضت إلى هذه الخاتمة ، وهي محتومة ليس عنها محيد . .

إذ لم يكن طبيعياً أن يصمد الناس على سنة النبوة أكثر من جيل واحد ، تثوب بعده الطبايع إلى فطرتها من نشأة الخليقة الأولى ، وقد يتفق كثيراً أن يغمرها جلال النبوة أو جلال الخلافة النبوية ، وهي في إبان النضال والحمية الدينية ، فتتسى المطامع وتسهب عن الحزازات وتستعذب الألم والفداء إلى مدى الطاقة الإنسانية ، ولكنها تبلغ مدى الطاقة الإنسانية بعد حين ، وتفتر عن النهوض من قمة إلى قمة . . فتركن آخر الأمر إلى الأرض السواء حيث لاحافز ولا مستنهض ، إلا مجارة الطبيعة في مجاريتها التي لا تشق عليها ، وإن المصلحين ليرضون غاية الرضا إذا هي حفظت من إصلاحهم عند ذلك وازعا يهديها بعد ضلالة عمياء ، ويردعها بعد جماع مرید ، ويكفكف من غلوائها ما كان من قبل منطلقا بغير عنان . . وقد نظر النبي عليه السلام بعين الغيب إلى هذا المصير فقال : «الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك» . . وأنبأ بانقسام الفرق وتشعب الأهواء ، وكأنما ينظر إلى ذلك بعينه صلوات الله عليه .



واتبع علي[ؑ] من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها ، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدهوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على أنها خير من سياسته في صدق الرأي وأمان العاقبة ، أو أنها كانت كفيلة باجتناّب للأزق التي ساقته الحوادث إليها .

فمن اللحظة الأولى ، أخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها . .
فعزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة ، وتمرغوا بالدنيا ، وطمعوا وأطمعوا
رعاباهم في بيت مال المسلمين ، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء
المتحرجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين . .

ورد القطن التي وزعتها بطانة عثمان بين المقرين وذوى الرحم ، فصرفتها عن
وجوهها التي جعلت لها من إصلاح المرافق وأغاثة المفتقرين إليها على شرعة
الإنصاف والمساواة .

ورجع إلى خطة أبى بكر وعمر في تجنيب الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتنة
الولايات ، مخافة عليهم من غوايتها وإبعاداً لهم من دسائس الشيع والعصبيات . .
فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن ، قال لهما : «بل تبقيان معى لانس
بكما» وسأل ابن عباس : «ما ترى ؟» فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة
الكوفة . قال على : «ويحك . . إن العراقيين بهما الرجال والأموال . . ومتى تملكا
رقاب الناس يستميلان السفية بالطمع ، ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على
القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملاً أحدا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على
الشام ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية كان لى فيهما رأى» .

نعم ، إن هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة الدنيوية على يديه . .
ولكن السياسة الأخرى كانت تفضي أنصاره ولا تضمن رضا المنافسين ودوامهم
على الرضا والوفاق بينهم فى تأييده . وكانت تخالف عقيدته التي يدين بها نفسه
وأقرب الناس إليه ، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه . . ولن يكون مالكا غالبا
بسياسة الملك على كل حال ، فإن لم يكن خليفة فما هو بشيء ، وإن كان خليفة
وسلطا فهو خطة عثمان التي لم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها
معروف ، وإن كان خليفة ولا اختيار له فى ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كأحسن
ما تراض له الحكمة ، وهو السداد كأقرب ما يتاح له السداد .

وعلم أن قريشا لا ينصرونه ، فنقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة . . لأن قريشا
كانوا هاشميين وهم لا يتفقون على بيعته ، وقد تركه أقربهم إليه ورحل إلى معاوية
طمعا فى رفته ، أو كانوا أمويين وهم حزب معاوية وأهل عشيرته وبيته ، أو من تميم

وهم حزب طلحة ، أو من عدى وهم يؤثرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أو من قبائل أخرى ، وهم كما قال : «قد هربوا إلى الأثرة» .. فإذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يضمن لهم ولاء ..

* * *

ولم تفض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه .. فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان ، وجميع العلامين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة .. وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ماطمعوا فيه ..
وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير ..

فحشدوا جمعهم إلى البصرة ، وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب في خلافة طلحة .. لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان ، ولما يزل قائما بالخلافة ، فقالت له : يا ابن عباس .. أنشدك الله فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلاً - أى ماضياً - أن تتخذ عن هذا الرجل - تعنى عثمان - وأن تشكك فيه الناس فقد بان لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم . وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح .. فإن يلب يسر يسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه فأجابها ابن عباس : «يا أمه الو حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا» أى على فقالت : «إيها عنك .. إنى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك» .

فلما بويع على في المدينة . لم تكن من أنصاره ولا مع الباقيين على الخيلة بينه وبين خصومه .. ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه السلام في مسألة الإفك التى قيل إنه أشار فيها بتطبيقها ، فخرجت إلى البصرة مع المطالبين بشار عثمان ، وكانت هنالك وقعة الجمل التى سُميت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول جملها وهودجها .. فانتصر على ، وقتل الزبير ، ومات طلحة بجرح أصابه فى المعركة ، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين فى الحجاز والعراق ..

على أن هذا النصر العاجل ، لم يخل من آفة تكدره وتندر بالخاوف التى يوشك أن يلقيها على فى حربه لخصومه الباقيين بعد موت طلحة والزبير .. وأقواهم معاوية بن أبى سفيان صاحب الشام ..

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة في جيش من المتمردين والتلذذين .. فإنهم يستحمسون في عقيدتهم ، وهي قضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتمادى في اللدد وإعجال قائدهم عن إتمام الروية وانتظار الفرص المؤاتية ..

فقد كان على عييل - كدأبه - إلى مفاحة الخارجين عليه في المهادة أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبئية - أتباع عبد الله بن سبا - وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه ، ولكنهم لفرط غيرتهم ولددهم في عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه ، ولم يقبلوا التوسط في الصلح دون الغلبة التي لا هودة فيها .. فدهموا القوم وأوقدوا جذوة الحرب ، قبل . أن يفرغ على " من حديث المهادة والتقريب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه ..

وكانت هذه أولى العشرات الكبار التي أعثرته بها حماسة المتمردين والتلذذين في جيشه ، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم عليه حتى منى بالعشرة التي لا تقال .. وكان ذلك في وقعة صفين ..

فإنه نظر بعد غلبته في العراق ، فلم يجد أمامه خصما يقف في طريق الخلافة إلا جيش معاوية بالشام ، فعمد معه إلى خطته التي جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة ، ونعنى بها خطة المسألة والبده بالإقناع .. فطالت المراسلة منه إلى معاوية ، ومن معاوية إليه ، وفي مثل واحد منها ، ما يعنى عن كثير ..

كتب إلى معاوية بعد وقعة الجمل ، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة .. «سلام عليك .. أما بعد ، فإن بيعتى بالمدينة لزمته وأنت بالشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا عليه . فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للفائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأصل ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضى ، وإن خرج عن أمرهم ردوه إلى ما خرج عنه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ماتولى ، وأصلاه جهنم وساعت مصيرا ، وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعلرت إليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، وهم

كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلى قبولك العافية ، وقد أكثرت في قتلة عثمان ، فإن رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون . . ثم حاكمت القوم إلى حملتك وإياهم على كتاب الله . وأما تلك التي تريدنا - معنى الخلافة - فهي خدعة الصبي عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان ، وإعلم أنك من الطلقاء^(١) الذين لا تحمل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى وقد بعث إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة . . فبايعه ، ولا قوة إلا بالله .

فرد عليه معاوية بما يلي :

«سلام عليك . . أما بعد ، فلعمرى لو بايعك الذين ذكرت وأنت برىء من دم عثمان ، لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان . ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . . فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم ، فلما فارقه كان الحكام على الناس أهل الشام ، ولعمري ما حججتك على أهل الشام كحججتك على طلحة والزبير ، إن كنا بايعاك فلم أباعك أنا . فأما فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ فلست أدفعه . .

ومن رد معاوية هذا ، تبدو النية الواضحة في فتح أبواب الخلاف واحدا بعد واحد . . كلما أغلق باب منها بقى من ورائه باب مفتوح ، لا ينتهي الخلاف بإغلاقه .

فتسليم قتلة عثمان لا تكفى ، لأن علياً نفسه متهم بالإعراء والتخذيل ، وبراءة علي من هذه التهمة لا تكفى لأن المرجع بعد ذلك إلى الشورى والنظر في البيعة من جديد . .

وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفى لأن الحق قد خرج منهم إلى أهل الشام ، وهم الحكام على الناس . . لأنهم يحكمون لمعاوية ولا يحكمون لغيره . .

ومن ثم ، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقال باللسان غير ما يجول في الصدور .

(١) أطلق معاوية وأبوه من الأسرى يوم فتح مكة .

وزحف على* من الكوفة إلى صفين ، ووجد جيش معاوية على الماء . . فنجاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال . .

وبدأت العشرات من ثم في كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتال ، فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخر يحرمها ولا يقول بوجوبها ، وتحاجز القوم نيفا وثمانين فرجة . . وتصاولوا في وقعات شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا ، وقلما اشتبك فيها الجيشان في وقعة جامعة حتى كانت وقعة الهرير ، وحاققت الهزيمة بجيش معاوية وقيل إنه هم بالفرار . . وإذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام ، وإذا بالعثرة الكبرى التي لا خطوة بعدها في طريق فلاح . . فإن علياً نظر حوله ، فإذا بجيشه يوشك أن يقتتل فيما بينه نزاعاً على القتال أو إلقاء السلاح ، وإن معاوية لفي غنى عن كفاح قوم لا يتفقون على كفاحه . . فله منهم سيوف مشروعة لنصرته ، شاموا أو لم يشاءوا ، وسيكفونه مئونة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه ، وهيئات !

* * *

ولو كانت آفة الطاعة في جيش علي* ، مقصورة على اجتهاد القراء والحفاظ ، وتمجبل الغلاة والتمرديين . . لكان في ذلك وحده ما يكفي لإفساد التدبير واضطراب القيادة وتعلل القتال على أصوله . . إذ لا يستغنى القائد في ميدان الحرب ، ولا في ميدان السياسة ، عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارئ والمناسبات . . فردا كان في كل عمل من أعماله عرضة لاجتهاد أصحاب الفتاوى ، وكان أصحاب الفتاوى يفترون عشرين وجهة في كل حركة من حركات الجيش ، فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ . وليس عجيباً بعد ذلك ، أن ينهزم في ميدان القتال شر هزيمة يتلى بها مقاتل . . بل العجيب أن يتماسك فترة من الزمن - وإن قصرت - أمام جيش يفوقه في العدد ويرجع في أمره إلى قيادة موحدة ونية مجتمعة ومشية مطاعة . .

ولكن الآفة مع هذا ، لم تكن كلها في اجتهاد الحفاظ وتمجبل الغلاة . . بل كان في الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه ، ويبعدو من أعمالهم أنهم مسخرون لعلوه كارهون لا تنصاره . . فإن لم يكونوا كذلك ، فالأمر الذي لاشك فيه أنهم

كانوا يعملون - وهم عامدون وغير عامدين - شر ما يعمله الخائن الخبيث الذي يتحين الفرص للمعناد والشقاق ، وإفشاء الخلل والخذلان في أحوال الأوقات .

وأدهى من ذلك ، أنه لم يكن قادراً على زجرهم والتنكيل بهم . . لأن الجيش الذي يوجد فيه من يحرم حرب العدو ، لن يعدم أناسا يحرمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة ، وليس لك بيئة قاطعة عليه .

ومثل من ذلك أيضا يغنى عن أمثال كثيرة ، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلاقهم أن ينصر حزبا على حزب ، لو خلصت نيته وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه . .

طمع هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبي عليه السلام ، فدعا قومه أن يتوجوه . . وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر في حصنه أياما ، وبس من الغلبة فاستسلم . . على أن يصاب دمه وبقية دم عشرة من أخصائه ، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ولجأ بالعشرة الذين اختارهم إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة . فلما نشب الفتنة بين علي ومعاوية ، كان هو من حزب علي يتطلع للفرصة الساتحة .

ثم زحف علي رضي الله عنه إلى صفين ، فكان الأشعث أول المنذفين إلى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء ، وجاء علياً يقول : «يا أمير المؤمنين! أئمننا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟ . . ولئى الزحف إليه . . فوالله لا أرجع أو أموت» ولكنه عاد إلى المسألة ، بعد أن وضع النصر في ليلة الهرير ، فنخطب في قومه من كندة قائلاً :

« . . . قد رأيتم يامعشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فنى فيه من العرب . . فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيتم مثل هذا اليوم قط . . ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن توافقنا غدا إنه لفتيت العرب وضيعت الحرمات . . أما والله ما أقول هذه للمقالة خوفا من الحرب ، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذراري غدا إذا فتينا» . .

ثم ذهب إلى علي رضي الله عنه بعد رفع المصاحف ، فقال له : «ما أرى الناس

إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى مادعوهم إليه من حكم القرآن . . فإن شئت أتيت معاوية فسألكه ما يريد فنظرت ما يسأل» .

ولقى معاوية فسأله : «يامعاوية . . . لآى شيء رفعتم هذه المصاحف ؟» .

قال : «لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل فى كتابه . . تبعثون منكم رجلا ترضون به ، وتبعث منا رجلا ، ثم تأخذ عليهما أن يعملما بما فى كتاب الله لا يعدوانه . . ثم نتبع ما اتفقا عليه» .

فقال الأشعبي : «هذا الحق ا» .

وعاد إلى على[ؑ] ينادى بالتحكيم ، ويختار له هو وأنصاره رجلا ينوب عن على[ؑ] ، وعلى[ؑ] لا يرضاه . .

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجتمعوا على أمير المؤمنين ، فلم يباليوا أن يجيبوه بالقول السمين منلرين متوعدين :

«ياعلى ا أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه ، وإلا ندفعلك برمته إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان . إته عرض علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه . . والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك» .

وألخوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعي من ساحة الحرب ، وإلا اعتزلوه أو قتلوه . . فقبل التحكم وهو كاره . .

واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، فقال الأشعث : «فإنا رضينا بأبى موسى الأشعري»

قال على : «إته ليس لى بشقة . . قد فارقنى وخلد الناس عنى ، ثم هرب منى حتى أمنتته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك» .

قالوا : «لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر . .»

قال : «فإنى أجعل الأشتر»

قال الأشعث - وهو بنفس على الأشتر مكاتته وبلاءه من قبل - : «وهل مسعر الأرض غير الأشتر ؟ . . أو قال : وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ا» . .

فلما رأى إصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال : « فقد أبيتم إلا أبا موسى ؟ »
قالوا : « نعم ! » .

قال : « فاصنعوا ما بدا لكم ! » .

* * *

فهذا رجل من الزعماء المطاعين في جيش علي ، لم يدع من وسعه شيئاً لتغليب
حزب معاوية على حزبه ، واستكشر عليه أن يكون الحكم الذي يختاره نصيراً له
مؤمناً بحقه وصحة رأيه . ولا طائل في البحث عن هذا الخذلان الصريح ، أكان هو
الطمع في الملك بعد فشل علي أم النقمة على الأشتر النخعي في مكاتته وبلائه ،
أم التواطؤ بينه وبين معاوية على منقعة مؤجلة ومكافأة موعودة . . فإنما النية الخبيثة
ظاهرة وإن استترت العلة ، وأيا كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما استطاع
لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذي هو فيه .

قال علي يصف قسمته من الأنصار ، وقسمته من النوازل والعثرات : « لو أحبنى
جبل لتهافت » .

وقال يصف أنصاره : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم
يوهي الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . . ما عزت دعوة من دعاكم ،
ولا استراح قلب من قاساكم . أعالييل بأضاليل دفاع ذي الدين المطول . . أي دار
بعد داركم تمنعون ؟ . . ومع أي إمام بعدى تقاتلون ؟ . . المغرور والله من غررقوه ،
ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق
ناصل^(١) . أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو
بكم ، ما بالكم ؟ . . ما دواؤكم ؟ . . ما طبيكم ؟ . . القوم رجال أمثالكم ، أقولا بغير
علم ؟ . . وغفلة من غير ورع ؟ . . وطمعا في غير حق ؟ . . » .

وهي صريحة لا تصف إلا بعض ما يعانيه من حيرة ، لا مخرج له منها في
سياسة أصحابه . فإنه لم يفرغ من التحكم الذي أذهن له وهو كاره ، حتى فوجئ
بطاقة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم ، وزعموه قبولا

(١) الأفوق هو السهم المكسور في موضع الوتر ، والناصل العاري من النصل .

للمتحكيم في كلام الله وفي دماء المسلمين ، وهو عندهم كفر بواح ، أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح ، وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذلك .

ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل التي وقع عليها الاختيار لتكون وسطا بين العراق والشام . ولم يكن قرار الحكمين خافيا على من عرفوا أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص فإن أبا موسى لم يكتف قط أن السلامة في اجتناب الفريقين والقعود عن القتال ، فليس أيسر من إقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء . ثم يرجع الرأي إلى عمرو بن العاص في إقرار هذا الخلع أو الاحتياي فيه بالحيلة التي ترضيه . غير أن الدهاة من العرب ، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذي أنابه عنه .

ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذي اعتزل الفريقين من مطلع الفتنة إلى يوم التحكيم ، فلما اجتمع الحكمان علم أنها الجولة الأخيرة في الصراع . . فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور ، على سنة الدهاة من أمثاله ، إذ يتنسمون الريح قبل هبوبها ، ولا يقلقون أنفسهم بهيها قبل أوانها . . فلقى أبا موسى وعمرو بن العاص ، ثم ذهب إلى معاوية وهو مشغول بالبال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الفطنون فيما وراء هذا الإبطاء المريب . . فقال له وهو يرى اشتغال باله : «قد أتيتك بخير الرجلين . .» .

قال معاوية : وما خيرهما ؟ . .

قال المغيرة : «إني خلوت بأبي موسى لأبلو ما عنده فقلت : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس في بيته كراهية للدماء ؟ . . فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء إخوانهم ويطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟ . . فقال : أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا» . .

ثم عقب المغيرة قائلا : «أنا أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه في عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه . .» .

وقد أحسن التغيير جزره نقط الحرف بالحرف فى تقدير نية الرجلين ، فإنهما ما اجتمعا هنيهة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له : «يا عمرو ! .. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟ » .

قال : «وما هو ؟ .. »

قال : «نولى عبد الله بن عمر ، فإنه لم يدخل فى نفسه شيء من هذه الحروب .. »
فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقى فى روع صاحبه أنه يريد معاوية ، ثم عاد يسأله :
فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ »
فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا أنه قال : «إن ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته فى هذه الحروب غمسا» .

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه فى كل لقاء ، وطفقا بيدئان منه ويعيدان إليه بعد كل جدال ، حتى وقر فى خلد الأشعري أن خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره ، فتواعدا إلى يوم يعلنان فيه هذا القرار ..

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد : «... ايها الناس ، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نر أصح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأبى ورأبى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتهم لهذا الأمر أهلا»

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد : «... إن هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أنخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية ، فإنه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه» .

فغضب أبو موسى ، وصاح به : «مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت ، إنا مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .. » .

فابتسم عمرو ، وهو يقول : «إنا مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا .. » .

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين ، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه ..

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة .

وبان أن اجتماع الحكمين لم يفض إلى اتفاق بين الحكمين ، فعاد الخلاف إلى ماكان عليه ..

غير أنه استشرى واحتدم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم .

فقد اجتمعوا وأبرموا فيما بينهم « . . . إن هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله ، وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما ، وحكموا الرجال في دينهم ونحن على الشخوص من بين أظهرهم ، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق » .

وخرجوا وعلى يأبى قتالهم حتى يبأس من توبتهم ، ولقيهم بالجيش ، فأثر أن يلقاهم مناقشا قبل أن يلقاهم مقاتلا ، واقترح عليهم أن يخرجوا إليه رجلا منهم يرضونه ، يسأله ويجيبه ويتوب إن لزمته الحجة ويتوبوا إن لزمتهم . فأخرجوا إليه إمامهم عبد الله بن الكواء .

قال على : «مالذي نقمتم على بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معي وطاعتكم لى ، فهلا برتتم منى يوم الجمل ؟ » ..

قال ابن الكواء : «لم يكن هناك تحكيم» .

قال على : «يا ابن الكواء ويحك .. أنا أهدي أم رسول الله ﷺ ؟ » .

قال ابن الكواء : «بل رسول الله ﷺ» .

قال على : «فما سمعت قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ (٤١) ؟ كان الله يشك إنهم هم الكاذبون .. »

قال : «إن ذلك احتجاج عليهم ، وأنت شككت فى نفسك حين رضيت بالحكمين ، فنحن أحرى أن نشك فيك» .

قال : «وإن الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤١) »

قال ابن الكواء : « ذلك أيضا احتجاج منه عليهم » . ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا : « إنك صادق في جميع قولك غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين » .

قال علي : « ويحك يا ابن الكواء .. إنى إنما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرا .. »

قال ابن الكواء : « فإن أبا موسى كان كافرا » .

قال علي : « متى كفر ؟ .. أحين بعثته أم حين حكم ؟ » .

قال ابن الكواء : « بل حين حكم » .

قال علي : « أفلا ترى أنى بعثته مسلماً فكفر في قولك بعد أن بعثته .. أرايت لو أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله^(١) فدعاهم إلى غيره ، هل كان على رسول الله ﷺ من ذلك شيء ؟ » .
قال : « لا » .

قال : « ويحك .. فما كان على أن ضل أبو موسى ؟ أفيحل لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعرضوا بها الناس ؟ » .

فعلم الخوارج أن صاحبهم ليس بنذل لعلى في مجال نقاش ، فكفوه عن الكلام كأنهم أمنوا بصدق على في حجته وقصده ، لولا أنهم قوم قهرتهم لاجحة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذى يجدون في المضى مع العناد لذة يستمرثونها من الحق والمعرفة .. فمردوا على الشقاق ، وأصروا على تكفير على وأصحابه ، وأن يعاملوهم في الحرب والسلم معاملة الكفار ..

* * *

واستبقى على بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة .. فرفع في الساحة راية ضم إليها ألفى رجل ونادى : « من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن » .

ثم قال لأصحابه : « لا تبعدوهم بالقتال حتى يبدأوكم » . فصاح الخوارج

(١) وقد حدث هذا في عهد النبي عليه السلام إذ أوفد نهاراً الرجال ليهدى قوم مسلمة فانقلب هناك مبشراً بدينه .

صيححتهم : « لا حكم إلا لله وإن كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد ..
وتلقاهم على وأصحابه لقاء من نقد صبره ووزر صدره . فما هي إلا ساعة حتى
قتل معظم الخوارج ، وبقي منهم نحو أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال ،
فأمر بهم عليٌ فحملوا إلى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج .

* * *

وأراد المسير إلى الشام ليلقى بها جيش معاوية ..

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى ، كما تصدى له في كل فرصة سانحة
للقلبة ، وقال له علي مسمع من الناس : « يا أمير المؤمنين .. نفذت نبالنا ، وكلت
سيوفنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا إلى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل
أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا ، فإنه أوفى لنا على عدونا »

وتسلل الجند من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ، وأيقن علي أن
القوم مارقون من يده ، ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم بعدها لقتال ..

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانته طلاب المنافع عامدين ، وأعانته الخوارج
غير عامدين ، فحاربوا علياً ولم يحاربوه ، وطلبوا التوبة من عليٌ ولم يطلبوها منه ،
واستمر هو في إنفاذ البعث والسرايا إلى كل موضع أنس منه عرة وظن بزعمائه
موجدة أو سامة . فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقي
عليٌ في أرياض الكوفة يائسا منعزلا عن الناس ، يتمنى الموت كما قال في بعض
خطبه ، ويوجس شرا من أقرب المقربين إليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين
معاوية علي أن تكون له العراق ولعاقبة الشام ، ويكفها السيف عن هذه الأمة ، فلا
نزاع ولا قتال ..

* * *

وبقيت في كنانة الاقدار مصادفة من هذه المصادفات التي يخيل إليك وأنت
تتعقبها ، أنها تجمعت منذ الأبد ليبوء علي بنقائض الموقف كله ، ويظفر خصومه
بتوقيفات الموقف كله .. فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة علي قتل
ثلاثة ، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة ، ويفلت زميلاه فيها :
معاوية ، وعمرو بن العاص .

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي ، وهم من غلاة الخوارج الموتورين ، قتلوا القتلى من فريقهم ، وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار - أو أئمة الضلالة في رأيهم - وهم : على بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص .

فقال ابن ملجم : «أنا أكفيكم على بن أبي طالب»

وقال البرك : «أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان»

وقال عمرو بن بكر : «أنا أكفيكم عمرو بن العاص»

وإن ضغينة الثأر لحافز أى حافز . .

وإن تهوس العقيدة لمثير أى مثير

وكان للمتأمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين ، يقضى عن مزيد من

التحريض على القتل والانتقام . .

ولكن المصادفة العجيبة هي التي شاءت أن تشحذ عزيمته ابن ملجم بحافز ثالث

لعله يمضى حين ينبو هذان الحافزان الماضيان ، وهو حافز من الغرام الظامى لا يرويه

إلا دم ذلك الشهيد الكريم .

فإن المرء قد ينيم نائمة الحقد ، وقد يمارى نفسه فيما تفرضه العقيدة . . ولكنه إذا

كان عاشقا منجولا يستنجزه الوعد معشوق مسلط عليه ، فهو مأسور زمامه في يدي

غيره ، وليس في يديه .

* * *

كان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب ، قتل أبوها وأخوها وبعض أقربائها في

معركة الخوارج ، وكانت توصف بالججمال الفائق والشكيمة القوية ، وتدين بمذهب

قومها فوق ما في جوانحها من لوعة الحزن على ذوبها ، فلما خطبها ابن ملجم لم

ترض به زوجا إلا أن يشفى لوعتها . قال : «وما يشفيك ؟» قالت : «ثلاثة آلاف

درهم وعبد وقينة ، وقتل على بن أبي طالب» .

قال : «أما قتل على فلا أراك ذكرته لى وأنت تريدنى . .» .

قالت : «بل التمس غرته . . فإذا أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهناك العيش معى ، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها » .

ويخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة ، يقتل كل منهم صاحبه فى ذلك الموعد . . فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته ، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلّى بالناس . فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرا فقتله . فقال عمرو : أردتني وأراد الله خارجة ، وأمر بقتله . .

وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله ، وقد خرج الغداة للصلاة فوعدت الضربة على أليته . . وقيل إن الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ، ورضى انقطاع النسل ، وهو يقول : «فى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى ، وأمر بالرجل فقتل لحينه» . .

وأما على ، فضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم : «يابنى عبد المطلب . . لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين . . إلا لا يقتلن أحد إلا قاتلى . .» .

«انظر يا حسن إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة . . ولا تمثل بالرجل فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور» .



وهذه خاتمة فاجعة ، تنظر فى كل فرض من فروضها فلا تخليها من المصادفة السيئة التى لا تلقى تبعثها على أحد بعينه .

فمهما يقتل القاتلون إن علياً إنما أصيب لأنه كان لا يتقى أحداً ، ولا يخرج إلى المسجد بحرس ، فالواقع أن المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق فى عشرات الحظ بينه وبين زميليه اللذين سيقا معه إلى مكيدة واحدة . . فخرجا منها بحظين غير حظه ، فإن ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج إلى المسجد محروساً ، ولكنه نجاً لأنه لزم بيته فى تلك الليلة ، ومات صاحب شرطته الذى خرج فى مكانه . ولم ينج معاوية لأنه خرج محروساً ، ولكنه نجاً لأنه أصيب وكانت إصابته غير قاتلة .

فهى المصادفة السيئة مهما تلتمس « لها علة من علة التاريخ ، ترجع بنا فى آخر الأمر إلى علة المصادفات التى لا تقبل التعليل .

وشىء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة ، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها إلى ما بعد انتهائها . .

وذلك هو النسيج الإنسانى النابض الذى يتخلل حياة على فى لحمتها وسداها ، وفى تفصيل أجزائها وجملة فحواها ، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة إلا وهى معرض حافل للمواقف الإنسانية برمتها ، تلتقى فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والإيمان والسماحة ، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم . . . وذلك الاشتباك الذى يخلقه الشعراء خلقا فى القصص والملاحم ، فلا يحكمونه بعض إحكام الواقع الملموس فى سيرة الإمام . وقد أسلفنا فى صدر هذا الكتاب أنها سيرة تلامس النفس الإنسانية فى شتى نواحيها : تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة ، ومن ناحية الفكر كناحية الخيال ، ومن ناحية التمرد كناحية الولاء . فإذا اتبعت السيرة بالخاتمة ، فأى خيط من خيوط تلك الشبكة الإنسانية التى تسجها الفرائح لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقده فى هذه الخاتمة الفاجعة ؟ أى باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولو اعجبها لا يرتعد هنا ارتعادا فى كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدنا ؟ ياس الكرم المغلوب وجرأة المحتال الغالب . وغرام المتهوس المجنون ، وأريحية القتييل الموصى بمن اعتدى عليه ، وحقد المرأة وخداع الجمال ، وزيف العقيلة ، واستواء الإيمان ، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموار واللهفة الدائمة فى خاتمة حياة تسع ألف حياة . .

* * *

وهذه مزية على بين خلفاء الإسلام قاطبة . . . ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات فى الأجيال الطوال ، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيتها فى كل جيل . . . تلك حياة حى . . . وذلك مصرع شهيد . . .

الفصل السادس

مبادئه

تسرى في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم ، ويتوارثها جيل عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسلّمة ، مقروغا من بحشها والاستدلال عليها ، وهي في الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال ، ولم تجاوز أن تكون شبيهة وافقت ظواهر الأحوال ، ثم صقلتها الألسنة فعز عليه بعد صقلها أن تردّها إلى الهجر والإهمال ..

كل أولئك من لغو الشعوب .. وللشعوب بدهاء تقصر دونها بدهاء القواصين من الأفراد ، ولكنها إذا لغت فشوطها في اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد بعيد .. من تلك الأحكام المرتجلة قولهم إن عليّ بن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لا علم له بتدع الحرب والسياسة !

وقد شاع هذا الرأي في عصر عليّ بين أصحابه ، كما شاع بين أعدائه ، وعزز القول به أنه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه ، وأنه لم ينبجج بعد هذه المخالفة في معظم مساعيه ، فكان من الطبيعي أن يقال إنه منى بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة ، وأنه هو لم يكن من أصحاب الخدع الناجحة في الحرب أو السياسة ..

وقد يكون كذلك أو لا يكون ، فسئري بعد البحث في آرائه وآراء المشيرين عليه أي هذين القولين أدنى إلى الصواب ..

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه ، في عصره أو بعد عصره ، أن يسأل نفسه : أكان في وسع عليّ أن يصنع غير ما صنع ؟ ..

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك : هيه استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هي العقاب ؟ .. وهل من المحقق أنه كان يفضى بصنيعه إلى عقاب أسلم من العقاب التي صار إليها ؟ ..

لم نعرف أحدا من ناقديه ، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذلك . . مع أن السؤال عن هذا وذلك هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الصواب والخطأ في رأيه ورأى مخالفه ، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة . .

والذى يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأى الذى سبق إليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر ، بل ربما كان الأمل فى نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم ، لو أنه وضع فى موضع العمل والإلحاز وخرج من حيز النصح والمشورة .

وهذه هى المسائل التى خالفه فيها الدهاة ، أو خالفه فيها نقلة التاريخ الذين نظروا إليها من الشاطئ ، ولم ينظروا إليها نظرة الريان فى غمرة العواصف والأمواج . . فالأخذ التى من هذا القبيل ، يمكن أن تنحصر فى المسائل التالية ، وهى :

١ - عزل معاوية

٢ - معاملة طلحة والزبير

٣ - عزل قيس بن سعد من ولاية مصر

٤ - تسليم قتلة عثمان

٥ - قبول التحكيم

٦ - قبول الخلافة

وهى كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين . . فإن لم يكن خلاف وكان جزم قاطع . . . فهو على ما نعتقد أقرب إلى رأى على وأبعد من آراء مخالفه وناقديه . .

* * *

قيل فى مسألة معاوية إن علياً رضى الله عنه خالف فيها رأى المغيرة وابن عباس وزباد بن حنظلة التميمي ، وهم جميعاً من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير . .
جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : «إن لك حق الطاعة والنصيحة ، وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد ، وإن الضياع اليوم تضيع به ما فى غد . أقرر

معاوية على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى إذا أتتكَ طاعتهم وبيعة الجنود استبليت أو تركت»

فأبى وقال : «لا أداهن في ديني ، ولا زعطي الدنيا في أمري»

قال المغيرة : «فإن كنت أبييت على فانزع من شئت واترك معاوية ، فإن في معاوية جرأة ، وهو في أهل الشام يستمع له ولك حجة في إثباته .. إذ كان عمر قد ولاء الشام» ..

فقال علي : «لا والله .. لا أستعمل معاوية يومين»

* * *

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له ، لما علم برأى المغيرة : «إنه نصحك» ..

قال علي : «ولم نصحنى ؟»

قال : «لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فمتى تثبتهم لا يباليوا بمن ولي هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شوري ، وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق ..»

ثم مضت الأيام ، وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتقض على الإمام .. فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمي يعلم ما عنده من أمر هذا الانتقاض ، وكان زياد من جلسائه

فقال له الإمام : «تيسر»

قال زياد : «لأي شيء ؟»

قال : «تغزو الشام»

فقال زياد : «الأناء والرفق أمثل ، واستشهد بقول الشاعر :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل علي :

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

فخرج زياد إلى الناس وهم يسألونه : «ما وراءك ؟» فأجابهم : «هو السيف
ياقوم !» ..

* * *

تلك آراء المشيرين من ذوى الخنكة ، وذلك ما عمل به الإمام وارتضاه .. فأيهما
على خطأ وأيها على صواب ؟ ..

سبيل العلم بذلك أن نعلم أولا : هل كان الإمام مستطيعا أن يقر معاوية في
عمله بالشام ؟ ..

وأن نعلم بعد هذا : هل كان إقراره أدنى إلى السلامة والوفاق لو أنه استطاع ؟ ..
وعندنا أن الإمام لم يكن مستطيعا أن يقر معاوية في عمله لسببين : أولهما أنه
أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ، وكان إقراره وإقرار أمثاله من الولاة المستغلين
أهم المآخذ على حكومة عثمان في رأى على وذوى الصلاح والاستقامة بين
الصحابة ، وكثيرا ما اعتذر عثمان من إقرار معاوية بأنه من ولاة عمر بن الخطاب ..
فكان على لا يقبل هذا العذر ولا يزال يقول له : «إنه كان أخوف لعمر بن الخطاب
من غلامه «يرفأ» .. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف»

فإذا أقره ولى الخلافة ، فكيف يقع هذا الإقرار عند أشياعه ؟ ألا يقولون إنه طالب
حكم لا بعينه إذا وصل إلى بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس ؟

وإذا هو أعرض عن رأيه الأول ، فهل فى وسعه أن يعرض عن آراء الثائرين الذين
بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان إلى حكم جديد ؟

إن هؤلاء الثائرين أشفقوا من نية الصلح مع طلحة والزبير فى وقعة الجمل ،
فبدموا بالهجوم قبل أن يؤمروا به .. بل هجموا على أهل البصرة وهم مأمورون
بالهدنة والأناة . فكيف تراهم يهدمون ويطيعون إذا علموا أن الولايات باقية على
حالتها ، وأن الاستقلال الذى شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه ؟ ..

وتدع هذا ونزعم أن إقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع .. فهل هو على هذا
الزعم أسلم وأدنى إلى الرفاق ؟

كلا .. على الأرجح ، بل على الرجحان الذى هو فى حكم التحقيق .. لأن

معاوية لم يعمل في الشام عمل وال يظل واليا طول حياته ، ويقنع بهذا التصيب ثم لا يتناول إلى ما وراءه ، ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده .. فجمع الأقطاب من حوله ، واشترى الأنصار بكل ثمن في يديه ، وأحاط نفسه بالقوة والثروة ، واستعد للبقاء الطويل ، واغتنام الفرصة في حينها .. فأى فرصة هو واجدها خيرا من مقتل عثمان والمطالبة بثأره ؟

وإنما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها ، وإلا ضاع منه الملك وتعرض يوما من الأيام لضياح الولاية . وما كان مثل معاوية بالذي يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور ، ولو على احتمال بعيد .. فماذا تراه صانعا إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلى وتبرئته إياه من دم عثمان ؟

إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل إلا رجاء ..

وإذا كان هذا موقف على ومعاوية عند مقتل عثمان ، فماذا كان على مستفيدا من إقراره في عمله وتعرض نفسه لغضب أنصاره ..

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من على ، لأنه كان يغتم به حسن الشهادة له وتزكية عمله في الولاية ، وكان يغتم به أن يفسد الأمر على على بين أنصاره . فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الإمام ..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيته أن صواب الإمام في مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه .. فإن لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح ، فأقل ما يقال إن الصواب . عنده وعندهم سواء ..

* * *

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية وولاية عثمان على الأمصار :

لأن الرأي الذي عمل به الإمام معروف ، والآراء التي تخالفه لا تعدو واحدا من ثلاثة : كلها أغمض عاقبة ، وأقل سلامة ، وأضعف ضمانا من رأيه الذي ارتضاه .. فالرأي الأول أن يوليهما العراق واليمن أو البصرة والكوفة ، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأي فأنكره الإمام لأن «العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكوا رقاب الناس يستميلان السفية بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان

على القوى بالسلطان . . ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية ، وقد استفادا من إقامة الإمام لهما فى الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة ، ويشيران بها أنصاره عليه والرأى الثانى أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل ، وهو لا ينجح فى الواقعة بينهما إلا بإعطاء أحدهما وحرمان الآخر . . فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة السانحة ، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره ، فيذهب إلى الشام ليساوم معاوية ، أو يبقى فى المدينة على ضغينة مستورة . .

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى فى مسيرهما من مكة إلى البصرة ، فوقع الخلاف . فى عسكرهما على من يصلى بالناس ، ولولا مسعى السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين . .

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين ، فانهزما بعد أيام قليلة ، وخرج الإمام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة ، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة .

والرأى الثالث أن يعتقلهما أسيرين ، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها ، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشنا الغارة عليه . . والواقع أن الإمام قد استراب بما نوباه حين سألاه الإذن بالسفر إلى مكة . . فقال لها : «ما العمرة تريدان ، وإنما تريدان الغدرة ا»

ولكنه لم يحبسهما ، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم . وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه فى السفر ، وتسلل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا ، ولو أنه حبسهم جميعا لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر ، وهو فى ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان ، وأغلب الظن أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقسمون حبسهم قبل أن تثبت له البيعة بوزرهم . وما أكثر المتحرجين فى عسكر الإمام من حبس الأبرياء بغير برهان ؟ . . لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم ، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموا فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره فى علته وحسن مجاملته لهم .

* * *

وعلى هذا كله ، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء .. لم يكن الجيش الذي خرج من مكة إلى البصرة بيئس من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت «العثمانية» في مكة حزبا موفور العدد والمال .. فهي مسألة تلتبس فيها الطرائق ، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التي سلكها الإمام وخرج منها غالبا على الحجاز والعراق ، وما كان وشيكا أن يغلب عليهما لو بقى معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التي قدمناها ..



أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر ، فهي غلظة من غلطات الإمام يقل الخلاف فيها ..

لأن قيس بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها ، وكان كنفوا لمعاوية وعمرو بن العاص في الدهاء والمداورة ، فعزله الإمام لأنه شك فيه .. وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام ، وزعم أنه من حزبه والمؤتمرين في السر بأمره .

وكان أصحاب علي^ع يحرضونه على عزله ، وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه .. فعزله وهو غير واثق من التهمة ، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة .

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة ، فإن قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية ، فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم ، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين إلى مصر من دولة علي^ع في الحجاز ..

ولما بايع المصريون علياً على يديه ، بقى العثمانيون لا يبايعون ولا يشورون ، وقالوا له : «أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر» فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الإسكندرية .

ثم أغراه معاوية بمناصرتة والخروج على الإمام ، فكتب إليه كلاما لا إلى الرفض ولا إلى القبول ، ويصح لن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغا لمعاوية أو يحسبه

مترقبا لساعة الفصل بين الخصمين .. إذ كان ختام كتابه إليه : « ... أما متابعتك فأنظر فيها ، وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف فلا يأتيك شيء من قبلى تكرهه ، حتى نرى وترى »

ثم اشتد فى وعيده حين أنذره معاوية فقال : « أما قولك إنى مالى عليك مصر خيلا ورجلا ، فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد والسلام .. »

وأراد الإمام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية ، فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة .. فلم يفعل وكتب إليه : « ... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك ، وهم الآن معتزلون والرأى تركهم » .

فتعاطم شك الإمام وأصحابه ، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدمه إلى المدينة .. فعزله واستقدمه ، وتبين بعد ذلك أنه أشار بالرأى الصواب ، وأن ترك المتخلفين عن البيعة فى عزلتهم خير من التعمجيل بحربهم ، لأنهم هزموا محمد بن أبى بكر والى مصر الجديد ، وجرعوا عليه من كان يصانعه ويواليه .. غلظة لا ريب فيها .. وإن كان جائزا مع هذا ألا يهزموا قيسا ، لو كان حاربهم ، كما هزموا خلفه الذى لا يعدله فى الحزم والخبرة .

ولكننا نبالغ على كل حال ، إذا علقنا بها الجرائر التى أصابت الإمام من بعدها ، وزعمنا أنه تقاعد عن إصلاحها فى حينها ، كما تصلح الغلطات التى يساق إليها السياسة .. فإنما هى غلظة من تلكم الغلطات التى تضير والحوادث مولية .. وقلما تضير أو تعز على الإصلاح والحوادث مؤاتية . وقد عرف الإمام خطأه فقال لصحبه : « إن مصر لا يصلح لها إلا أحد رجلين هذا الذى عزلناه والأشتر » وأنفذ الأشتر إلى مصر ليعيدها إلى طاعته فمات فى الطريق ..



والأقوال فى موت الأشتر هذه الميئة الباغثة كثيرة ، منها أنه مات غيلة وأن معاوية أغرى به من دس له السم فى غسل .. شربه وهو على حدود مصر فقضى نحبه ، وروى أن معاوية قال حين بلغه موته : « إن لله جنودا من العسل » ..

فإن صحت الرواية ، واعتقد من اعتقد أنها من دلائل السياسة القوية عند معاوية .. فمما لاشك فيه أن موت الأشتر ، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الإمام ، وأنه لا لوم على سياسته في اغتياله ، إن كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة عند من يحمدونها .

ومن عجائب هذه القصة أن معاوية ندم على تقريب قيس من جوار علي ، وقال : «لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون علي من قيس» لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه في عامة أموره ، ولا ينحصر نفعه له في سياسة مصر وحدها ..

ولكن الذى حذره معاوية لم يكن ، والذى حذره علي كان ..

وإذا ولت الحوادث ، فقد ينفع الخطأ وقد يفسر الصواب ..

* * *

ثم تأتي مسألة القصاص من قتلة عثمان التى كانت أطول المسائل جدلاً بين الإمام وخصومه ، فإذا هى أقصرها جدلاً من براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة فى الحقيقة ..

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه ، مع أن القود لا يكون إلا من ولى الأمر المعترف له بإقامة الحدود .

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة ، ومن هو الذى يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد ..

وأعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا يستطيع قبيل أن تشوب السكينة إلى عاصمة الدولة ، وأعفوا أنفسهم منه - وهم ولاية الدم كما يقولون - يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة إلى جميع الأمصار .

وقد تحدث الإمام مرة فى أمر القود من قتلة عثمان ، فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم «كلهم قتلة عثمان» فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين .

وكان الإمام يقول لمن طلبوا منه إقامة الحدود : «إنى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يلكوننا ولا نملكهم ، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم

وثابت إليهم أعرابكم ، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون ؟ . . .»

ومن قوله لهم : « . . . إن هذا الأمر جاهلية ، وإن لهؤلاء القوم مادة ، وإن الناس من هذا الأمر الذى يطلبون على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى مالا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها ، وتتخذ الحقوق فاهدها عني ، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا»

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له ، والقصاص من العادين عليه ، لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا . . . يؤيدون ولى الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود ، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف . . .

غير أنهم طلبوا مالا يجاب ، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه ، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد روى عنها أنها قالت لما أخبرت بببيعة على^١ وهى خارجة من مكة : «ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لعلى^٢» تشير إلى السماء والأرض . . . ثم عادت إلى مكة وهى تقول : «قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه» . . .

فقبل لها : «ولم ؟ . . . والله إن أول من أثار الناس عليه لانت . . . ولقد كنت تقولين : اقتلوا «نعثلا» فقد كفر»

فقلت : «إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى اليوم خير من قولى الأول» وناهيك بالسيدة عائشة فى فضلها ومكائنها وتقواها ، فقل ما شئت فى المطالبين غيرها بهذا المطلب الذى لا يجاب

والرضا ، أو الإرضاء ، مستحيل حين يكون المطلب من هذا القبيل

* * *

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم ، فينحيل إلينا من عجلتهم إلى اللوم أنهم كانوا أول من يلومه ويفرط فى لومه لو أنه رفض التحكيم وأصر على رفضه ، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه . . .

ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب ، ووشك القتال فى عسكرهم خلافا بين من يقبلونه ويرفضونه .

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفا وثمانين فزعة للقتال لشكهم في وجوبه
وذهاب بعضهم إلى تحريمه .

وبعد أن توعدوه بقتلة كقتلة عثمان ، وأحاطوا به يلحون عليه في استدعاء
الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مستحصدا في ساحة الحرب على أمل
في النصر القريب ..

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه في اليحكييم وخطئوه في قبول أبي موسى الأشعري ،
على علمه بضعفه وتردده ، ينسون أن أبا موسى كان مفروضا عليه ، كما فرض عليه
التحكيم في لحظة واحدة .. وينسون ما هو أهم من ذلك ، وهو أن العاقبة متشابهة
سواء تاب عنه أبو موسى الأشعري أو تاب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس .. فإن
عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً في الخلافة ، وقصارى ما هنالك أن
الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور إلى مثل ما رجعت
إليه . وإن توهم بعضهم أن الأشتر أو ابن عباس كان قديرا على تحويل ابن العاص عن
رأيه ، والجنوح به إلى حزب الإمام ، بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية ..
فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم ، وحوله المؤيدون
والترقبون للمطالع واللبنات يعز عليهم إخفاتهم كما يعز عليه إخفاقه .

وما أسهل المخرج الشرعي الذي يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على
نقض حكم الحكمين المتفقين ؟ .. لقد كان النبي عليه السلام يقول عن عمار بن
ياسر إنه «تقتله الفشة الباغية» فلما قتله جند معاوية ، وخيفت الفتنة بينهم أن
تلمزمهم سبة البغي بشهادة الحديث الشريف قال قائل منهم : إنما قتله من جاء به
إلى الحرب .. فشاع بينهم هذا للتفسير للعجيب ، وقبلوه جميعا غير مستثنى منهم
رجل واحد .. أفلا يقبلون تفسيرا مثله إذا تحول ابن العاص ، وأفتى الحكمان بخلع
معاوية ومبايعة الإمام ؟

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين إذن حل أصوب من الحل الذي أذعن له
الإمام على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوى بينه
وبين غيره في عقباه

* * *

ويبقى اعتزال الخليفة من البداية ، وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه المعضلات التي واجهها الإمام ، ولم يكن عسيرا عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها . . وشيوعهما قبل ذلك بين جنده الذي يعول عليه .

ولكنها خطة سلبية لا يمتحن بها رأى ولا عمل ، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل . . وكل ما هنالك من أسباب ترجيحها أنها أسلم للإمام وأمن لسريه وأهدأ لباله ، وهو أمر مشكوك فيه . . على ما فى طلب السلامة بين هذه الزعازع من أثره ، قلما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل .

فمن السخف أن يخطر على البال أن رجلا كعلى بن أبى طالب ، يترك وادعا فى سريه بين هذه الزعازع التي تحيط بالدولة الإسلامية فى عصره . .

إن تركه الثوار وأعفوه من الحكم ، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والإيذاء ، لا اعتقادهم أنه باب من أبواب الخطر الدائم ، وأنه ما عاش فهو علم منصوب يقىء إليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل إن ابنه الحسن مات مسموما فى عهد معاوية خوفا من لياذ الناس به ورجعتهم إليه . وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد . . وما أعظم البون فى المكانة والحساب بينهما وبين الإمام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال .

ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى ، إذا رجعنا إلى أقوال أبطال الميدان نفسه فى علل النصر والهزيمة ، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه .

فعلى يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه فى الدهاء ، فيقول : « . . والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يفدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . . »

أو يقول : « ولكنه لا رأى لمن لا يطاع »

ويعلل ما أصابه فى بيعته بما أجمله لاتباعه حين قال لهم : « . . لم تكن

بيعتكم إياي فلتة ، وليس أمرى وأمركم واحدا .. إني أريدكم الله ، وأنتم تريدونني
لأنفسكم »

ومعاوية يذكر الخصال التي أعين بها عليّ ، فيقول : «إنه كان رجلا لا يكتف
سراً وكنت كتوما لسري ، وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكنت أبادر إلى
ذلك ، وكان في أخبث جند وأشدهم خلافا ، وكنت أحب إلى قريش منه ، فملت
ما شئت .. »

وعمر بن العاص يقول عن عدة النجاح في طلب الخلافة : «إنه لا يصلح لهذا
الأمر إلا رجل له ضرسان ، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر»
وهذه هي أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها ، إلا أنها تظل ناقصة ما لم نقرنها
بحقيقة أخرى ، وهي أن هزيمة معاوية كانت مرجحة - بل مؤكدة - لو أنه وضع في
موضع عليّ ، وابتلى بالأسباب التي ابتلى بها .

فالبلاء كله إنما كان في خبث الأجناد وشدة خلافهم ، ولهذا كان سر عليّ يعرف
وسر معاوية يكتف .. لأن معاوية يطاع ونيته في صدره ، وعليّ لا يطاع إلا إذا سئل
عن نيته وما يحل منها أو يحرم في رأى أتباعه . وكذلك كانت تفاجئه الحوادث
لأنه كان يروى فيها ما يروى ، ولا ينقذ من رويته إلا الذي ينساق إليه هو وأتباعه
آخر المطاف بحكم الضرورة الحازية ، وقد بطل الجدل وبطل من قبله التدبير ..

* * *

ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جندا مطيعا بجند عصاة ، لما طمع في حظ
أوفق من حظ عليّ في ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين .. ولو استعان بكل ما
أعين به من رشوة الأتصار وكيد الخصوم ، بل لعله كان يخفق حيث أفلح قرنه علي
قدر ما بينهما من فارق في الشجاعة والسابقة الدينية ، وكذلك قال الإمام : «إن
لبنى أمية مرودا يجرون فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لقلبتهم» .
عليّ أننا نود أن نقف عند الحد المأمون من تعليل النصر والهزيمة ، ولا نعدوه إلى
ما وراءه .. فليس من قصدنا أن نصف عليّاً بقوة الدهاء وسعة الخيلة ، ولكننا
قصدنا أن نبرئه من عجز الرأى وضعف التدبير ، لأن أسباب الهزيمة موفورة بغير هذا
السبب الذي لا دليل عليه .

فقوام الفصل بين الطرفين ، أنه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز رأى ولا قوة دهاء .. ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبية فيه لظهرت على صورة من الصور ، وإن قامت الحوادث عائقا بينها وبين النجاح فإن الدهاء لا يخفيه أن تكون المعضلة التى يعالجها محتومة الفشل مقرونة بالخذلان ..

وما لاشك فيه ، أن علياً أشار بالرأى فى مواقف كثيرة فأصاب المشورة ، وأنه وصف أناسا فدل على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال ، وأنه أخذ بالحزم فى توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية فى ذلك ، ولم يتجاوزها إلى الأمد الذى يسلكه بين الدهاة الموسومين بفرط الدهاء ..

فمن مشوراته الصائبة ، أنه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه ، فقال له : «إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتتكب ، لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم .. ليس بعدك مرجع يرجعون إليه ، فابعث إليهم رجلا مجربا .. فإن أظهره الله فذاك ما تحب ، وإن تكن الأخرى كنت ردعاً للناس ومثابة للمسلمين» .

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم ، قوله لابن عباس وقد أرسله إلى طلحة والزبير : «لا تلقين طلحة ، فإنك إن تلقه تلقه كالثور عاقص - أى لاويًا - قوته يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن الق الزبير فإنه ألين عريكة فقل له : «يقول لم ابن خالك عرفتنى بالحجاز وأتكرتنى بالعراق .. فما عدا بما بدا ؟»

ومن حزمه أنه كان يبيت عيونه وجواسيسه فى الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه . وأنه كان إذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأنه التردد والإبطاء بعد ذلك إلا من خلاف جنده .

ومن معرفته للجماهير أنه وصفهم أوجز وصف حين قال إنهم أتباع كل ناعق ، وإنهم «هم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا» .. لأنهم إذا تفرقوا رجع أصحاب المهن إلى مهنتهم فانتفع بهم الناس .

فهذا قسط من الرأى الصائب ، كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الإمام للخلافة .. والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة فى دور تأسيسها وتلقيق أجزائها ..

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم فى الدولة الدنيوية ، لو تولاها بعد استقرارها
والفراغ من مكائد تأسيسها . . كما جاء عمر بن عبد العزيز فى صلاحه وتقواه بعد
الملوك الأولين من بنى أمية . .

ولكنه قسط من الرأى لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين يكيدون
بالرأى وبالعمل النافذ على السواء . .

* * *

ونعود بعد ذلك ، فنقول إنه لم يخسر كثيرا بما فاته من الدهاء . . ولم يكن ليربح
كثيرا لو استوفى منه أوفى نصيب ، لأنه لا بد من ملك أو خلافة . .

ولن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن
يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده ، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعى
الاجتماعية ، وتهيأ الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله .

ولم يكن معاوية زاهداً فى الخلافة على عهد أبى بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن
الخلافة كانت زاهدة فيه .

فلما جاء عصر الملك ، طلب الملك والمملك يطلبه . .

وقديما قال أبوه للعباس عم النبى ، وقد رأى جيش المسلمين فى فتح مكة : فلقد
أصبح ملك ابن أخيك عظيما .

فهو الملك ، أو هو جاء الدنيا ، الذى تطلع إليه من نشأته الأولى فى بيته . وانتظر
ثم انتظر حتى لاقاه على قدر ، فوضع فى موضعه وقام به الموضع كما قام به ، ونجحا
معا على التوافق والوفاء . .

وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة ، وجب أن يكون على رأس
فريق الخلافة .

وحين وجب أن يقع الفصل بين أصحاب المنافع الراغبين فى دوام المنفعة ، وبين
أصحاب المبادئ والظلمات الراغبين فى التبديل والإصلاح ، وجب أن يكون على
على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق .

وحين وجب هذا وذاك وجوبا لا حيلة فيه للمتحول ، ولا تختيار فيه للمختار ،

وجب أن تصير خلافة عليّ إلى ما صارت إليه ، كائنا ما كان حظه من الدهاء والخديعة ، وكائنا ما كان طريقه الذي ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه .

* * *

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة الملك في صراع عليّ ومعاوية ، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر في هذا الصراع ، وقد ظهرت في مآزق شتى من أخرج مآزق التاريخ ، واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيرا في تأسيس الدول وقمع الثورات ، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء طويل . . . وتريد بها عدة البطش العاجل والمباغتة الحاسمة كلما تأشبت العقد وتعسرت الخيلة ووجب الخلاص السريع . . .

فقد علمنا مثلا أن الأشعث بن قيس كان يعترض الإمام في كل خطوة من خطوات النصر ، ويثقل عليه باللجاجة والعنت في مواقف مكربة تضيق بها الصدور . . . ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب ، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج . يظهرون بالعنت في غير موضعه ويذهبون به وراء حده ، وربما بلغوا من الضرر في معسكر الإمام فوق مبلغ الأشعث بن قيس ، على عظم الفارق بين سلطاتهم وسلطاته .

ألا يخطر على البال هنا ، أن ضربة من الضربات القاضية كانت تنجع في هذا العنت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعية أو الأحاييل السياسية ؟ . . .

ماذا لو أن الإمام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين ، وأطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد إلى نفسه ، ثم ولى على الفور من يقوم مقامه في رئاسة القوم ويكفل لهم الطاعة بينهم لأمره ؟ . . . أكان بعيدا أن تفعل الرهبة فعلها ، فيسكن المشاغب ، ويهاب المتطاول ، ويجتمع المتفرق ، ويقل الخلاف بعد ذلك على الإمام وعلى الرؤساء عامة ؟

لم يكن ذلك بعيد .

لكنه كذلك لم يكن بالحقق ، ولا بالمأمون . . .

فهي مجازفة ذات حدين ، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا . . . وقد

يكون الحد الذي تصيب به هو الحد الذي من قبل الضارب دون الحد الذي من قبل المضروب ..

وكل ما تفيدنا إياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق ، أن الإمام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التى اتصف بها بعض أبطال القلاقل فى أيام الفصل بين عهدين متدابرين . فكانت له ضربة الشجاع ، ولم يكن له ضربة المغامر أو المقامر ..

ولم يضرب بالسيف قط ، كأنه يقذف بالقذاح إما إلى الكسب وإما إلى الخسارة .. وإنما كان يضرب به ضرب الجندى الذى يلتصم الغلب بقوته وقوة إيمانه ، ولا يلتصم من جولات السهام وفتلات الغيب ..

على أننا - وقد سجلنا هذه الملاحظة - نفرض أنه رضى الله عنه كان من أصحاب تلك الملكة التى عرف بها بعض المغامرين فى أوقات الفصل بين العهود .. ونفرض أنه عمد إليها ، فنفعت فى عسكره وطوعت له الجند وأراحته من شغب الخارجين عليه والمتشعبين بالأراء والفتاوى من يمينه وشماله فماذا عسى أن يغير هذا كله من طبيعة الموقف الذى أجملناه ؟ وكيف يكون المخرج بين سياسة الملك ، كما يطلبها العصر ، وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية ؟

أيسوس الإمام دولته ملكا دنيويا أم يسوسها خليفة نبوة ؟

أيفرق الأموال على رموس القوم وقادة الجند وطلاب الترف أم يلزمهم عيشة النسك والشظف والجهاد ؟

وإذا حرمهم وتألّبوا عليه مع خصمه ، أفهو الغالب إذن بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟

وإذا أعطاهم ليبدخوا بذخ الملك الدنيوى وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنة النبوة ، أفيستقيم له هذا الدور العجيب وهو فى جوهره متناقض لا يستقيم ؟ ..

فالسياسة التى اتبعها الإمام هى السياسة التى كانت مقبوضة له مفتوحة بين يديه ، وهى السياسة التى لم يكن له محيد عنها ، ولم يكن له أمل فى النجاح إن

حاد عنها إلى غيرها .. سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم الذى رأيناه ، وسواء لان لطلاب الدولة الدنيوية أم صمد على سنّة النبوة والخلافة النبوية .



ومهما يكن من حكم الناقدين فى سياسة الإمام ، فمن الجور الشديد أن يطلب بدفع شيء لا سبيل إلى دفعه ، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهى منتهية لا محالة إلى ما انتهت إليه ..

ومن الجور الشديد ، أن يلقى عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ، ولا بد لها من شهيد ..

وقد تجمعت له أعباء النقائص والمفارقات التى نشأت من قبله ، ولم يكده يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبى صلوات الله عليه ..

أحسن بها الصديق ، فمات وهو ينحى على الصحابة ويحذرهم بوادى الترف الذى استناموا إليه ..

وأحسن بها الفاروق وأثقلت كاهله ، وهو الكاهل الضليع بأفدح الأعباء .. فضايق ذرعا بالحياة ، وطفق يقول فى سنة وفاته : «اللهم كبرت سننى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فأقبضنى إليك غير مضجع ولا مفرط .. اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك»

وأحسن بها عثمان ، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين ، لا يرجع أحدهما إلا بالغبلة على نده وضده ..

وكتب لعلى* بعد ذلك أن يتلقى الدولة الإسلامية بين هذين العسكرين ، فلا فى مقدوره أن يجمعهما إلى عسكر واحد ، ولا فى مقدوره أن يختار منهما عسكر الملك ، ولا أن يختار عسكر الخلافة الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها ..

وما لم يكن فى مقدوره لم يكن فى مقدور غيره ، وإنه لإصاف قليل أن تعرف له هذه المعاذير الصادقة ، وهو الذى باء وحده بتلك النقائص والأعباء ..



وقد نقلت سياسة علي[ؑ] لفوات الخلافة منه قبل البيعة . كما نقلت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأحصى عليه بعض المؤرخين أنه تأخر نيفا وعشرين سنة . . فلم يخلف النبي ، ولم يخلف أبا بكر ، ولم يخلف عمر . . كأنه كان مستطيعا أن يخلف أحدا منهم بعمل من جهده وسمى من تدبيره ، فأعياه السعي والتدبير . .

ومقطع الفصل في هذا أن نرجع إلى العوائق التي حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها إليه ، لنعلم منها العائق الذي كان في أيدي الحوادث والعائق الذي كان في يديه ، أو كانت له قدرة معقولة عليه .

فمما لاشك فيه أن الإمام أنكر إجحافا أصابه في تخطيه بالبيعة إلى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وأنه كان يريد أن قرابته من النبي مزية ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقاده ، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة ، كما قال . . .

ومما لاشك فيه ، أن شعوره هذا طبيعي في النفس الإنسانية كيفما كان حظها من الزهد والقناعة ، لأن تخطيه - مع هذه المزية التي ترشحه للبيعة - يشبه أن يكون قدحا في مزاياه الأخرى ، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له وبمالة على الغض من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح فيها والخط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة . .

غير أن الخلافة الإسلامية . مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد . وقد يضحى في سبيلها بالعظيم والعظماة ، إذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء . .

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى في ميزان علي[ؑ] هي العائق الأول في سائر الموازين ، ومنها ميزان النبي صلوات الله عليه . .

فقد كان عليه السلام يأبى أن يشير العصبية في قريش ، وفي القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة ، وكراهته أن يصور الإسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصابة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين . وقد رضى في سبيل هذا المقصد الحكيم ، أن يجعل بيت أبي سفيان

صنوا للكعبة في أمان اللاجئين إليه ، وأصهر إلى أبي سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبه ، وربما حسن لديه أن تتول الخلافة إلى علي[ؑ] بعده إذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن علي أن تكون خلافته اختيارا مرضيا كاختيار غيره من أنصاره وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد .

ولم تكن الحكمة النبوية هي وحدها التي تأبى إثارة العصبية وتصوير الإسلام للعرب وللناس عامة في صورة السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها في صميم أصولها تأبى هذا الذي أبت الحكمة النبوية وتجنبتة غاية ما في وسعها . اجتنابه . . لأن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، تشمل الأمم كافة من عرب إلى عجم ومن مشرق إلى مغرب ، وتقوم في أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم إلى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق . فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة ، وأن يقام الحكم على هذه التفضيل . .

وإن أحق الناس أن يفتن إلى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا أن وراثة الخلافة في بنى هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من ضرورات الدين . . فلو أنها كانت حكما من أحكام الله ، لكان أعجب شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور ، وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت . .

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين ، أو ضرورات القضاء ، لنفذت في الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم ، وحبطت كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية . .

فلا النصوص الصريحة ، ولا دلالة الحوادث على الإرادة الإلهية . عما يؤيد أقوال الغلاة عن ترجيح الخلافة بالقرابة ، أو حصر الخلافة في الأسرة الهاشمية . . وهذا هو العائق الأول الذي حال بين علي[ؑ] وبين الخلافة ولا قدرة له عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة ، وذكره الفاروق حين قال : «إن قريشا اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة» . .

* * *

ويرى بعض المؤرخين ، أن قريشا كانت تحقد على الإمام وتنحيه عن الخلافة لعدة أخرى تقترن بهذه العصبية التي أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بنى هاشم ، فقد بطش الإمام بنصر من جلة البيوت القرشية في حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بنى أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية ، والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه ، وجميعهم من قتلاه في يوم بدر . . . عدا من قتلهم في الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم في الإسلام ، وزادهم حقدا أنهم لا يملكون الثأر من لقتلاهم من الكفار . وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبي الحديد : « . . . كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه ، من إظهار ما في النفوس وهيجان ما في القلوب ، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائمه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله » .

وقد علم الإمام هذا من قريش ، عندما يشس من مودتها وابتلى بالصريح والدخيل من كيدها ، فقال : « . . ما لى ولقريش ؟ . . أما والله لقد قتلتم كافرين ولأقتلنهم مفتونين . . والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته . . فقل لقريش ، فلتضح ضحيجها » .

ولو أن قريشا وادعته في سرها وجهرها ، ووقفت بينه وبين منافسيه على الخلافة لا تصده عنها ولا تدفعهم إليها ، لقد كانت تلك عقبة أى عقبة . .

فأما وهى تحاربه بعصبيتها وتحاربه بدحولها ، فتلك هى العقبة التى لا يبللها إلا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبى صلوات الله عليه ، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش فى أرجاء الدولة الإسلامية بأسرها . .

* * *

ولقد سبق الإمام إلى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم : أبو بكر وعمر وعثمان . . فإذا نظرت إلى عائق العصبية الذى قدمناه ، فلا ترى شيئا أقرب إلى طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم إلى ولاية الخلافة بعد النبى عليه السلام ، لأنهم أقرب الناس أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال الترشيح والترشيح . .

فليس أقرب إلى طبائع الأمور في بلاد عربية إسلامية من اتجاه الأنظار إلى مشيخة الإسلام في السن والوجاهة والسابقة الدينية ، لاختيار الخليفة من بينها على السنة التي لم تتغير قط في تواريخ العرب الأقدمين ، ولم يغيرها الإسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين .

ولم يكن الإمام عند وفاة النبي من مشيخة الصحابة التي تثول إليها الرثلة بدهاء بين ذوى الأسنان ، من مارسوا الشورى والزعامة في حياته عليه السلام . . لأنه كان يومئذ فتى يجاوز الثلاثين بقليل . وكان أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا في جوار النبي بضع عشرة سنة قبل ظهور علي في الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبي ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوفير والولاء . .

والعائق الذي قام بين علي وبين الخلافة هو في طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تهديد وتقريب . .

ونعنى به عائق العصبية الهاشمية . .

لأن قريشا لا تنفس على بنى تيم ، ولا بنى عدى ، ولا بنى أمية ، في رئاسة عثمان خاصة . . كما تنفس على بنى هاشم ، إذ تجتمع لهم النبوة والخلافة . .

* * *

والإمام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بشاقب نظره ، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق : «إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : «إن ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا . . وما كانت في غيرها من قريش تداولتموها بينكم» .

وإذا اجتمع هذا العائق إلى عائق السن والتوفير للمشيخة المقدمة . فهما مبعدان للإمام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه . .

نعم إن فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق ، وبلغ الامام الخامسة والأربعين ، وسبقت له في المشورة سوابق ماثورات . . فأصبح الفاروق بينه وبين من يكبرونه مزية تعين على العمل والجهد وتنقى مظنة الضعف والتواكل . ولكن الذي كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية وبأس الرؤساء من الوفر والنعمة على

يديه ، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب إلى بعض الأمل في لين عثمان وتقدم سنّه
منهم إلى أمل من الآمال في شدة الإمام وعسر حسابه ..
وبقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها ، لم يكفكف منها تقادم العهد كما
قال ابن أبي الحديد ..

وعلى هذه الجفوة في القبيلة كلها ، دخلت في الأمر دخلة البواعث الشخصية
التي لا يسلم منها عمل من أعمال بنى الإنسان في زمن من الأزمان .. فقد
اجتمع رهط الشورى الذين نديهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده ، فتقدم بينهم
عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس
باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم . وقيل إنه أنس مع الزبير وسعد بن أبي وقاص
ميلا موقوتا إلى عليّ وانحرافا موقوتا عن عثمان ، فسارع إلى المنبر وبايع عثمان
وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق ..

وكان عبد الرحمن بن عوف صهرا لعثمان ، لأنه زوج أخته لأمه أم كلثوم بنت
عقبة بن أبي معيط .

ويقضى الحق أن يقال في هذا المقام إن بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين
لم ينقضه خلاف معدود ، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هي التي خللت
عليّاً وقدمت عثمان عليه ، إذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين حزينين متكافئين لما
استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن بن عوف .. وهو واحد من خمسة
أو ستة إذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ..

* * *

ثم بويح الإمام بعد مقتل عثمان ، فهل تحولت قريش عن جفوتها ، أو نظرت إلى
السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها ؟
كلا ...

بل جاءت البيعة في المدينة . يوم خفت فيها صوت قريش ، وهبطت سمعة
حكامها .. يوم أصبحت البيعة ثورة على قريش ، تنكر عليها الأثرة بالملك والأثرة
بالغنائم والأمصار .. ويوم انقسم المجتمع الإسلامي قسميه اللذين التيسا وتداخلا

حيناً حتى فصلتھما الحوادث فصلھا الحاسم فى خلافة عثمان : قسم يريد الرجعة إلى الخلافة والآداب النبوية ، وقسم يريد المضى فى الملك والدولة الدنيوية .. فأى القسمين ، كان قسم على* كائنا ما كان سعيه واجتهاده ؟ .. وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبی إلى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان ؟

كل سياسة له لم تكن لتحديد به عن الخاتمة المحتومة أقل محيد . وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره ، فهو على هذا الملتقى الذى يتلاحق عنده الإسراع والإبطاء ..

وعلى هذا ينبغى أن ترجع إلى علة غير سياسة على* لتعليل العواقب التى قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق والفاروق وعثمان .. فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التى نظرت بها قريش إلى السيادة الهاشمية .. وهو غير مسئول عن سنه التى تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة فى الجهاد والزعامة والأصالة بين ذوى الإسنان والأخطار ..

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس الإسلام على أسرة واحدة فى العالم كله أمراً ملحوظاً بالتوجس والإحجام منذ اللحظة الأولى .. نعم قد يسأل الإمام عن علاقته بالناس وقدرته على تألفهم بالأمال ، والمجاملات ، ليأنسوا إليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه ، ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملاً فى بره واطمئناناً إلى حقاوته ووده

وقد يرد على بعض الخواطر ، أن سياسة الدولة الدنيوية أو سياسة الإرضاء بالمنافع والوعود ، كانت أجدى عليه من آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولاً وأخيراً بين قريش وقبائل العرب عامة ..

فهذا فى رأيهم مأخذ يرجع إلى شخصه وأعماله ، ويسأل عنه كما يسأل الإنسان عن عمله وتصريف إرادته وفكره .. ولا يجوز أن نرجع به إلى حكم الحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التى لا قبل له بتبديلها

ولكن الواقع أن هذه السياسة - لم تكن لتجديه شيئاً بعد وفاة النبی ، ولا بعد مقتل عثمان ..

فبعد النبي عليه السلام ، لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت في الأيدي وأنشأت في المجتمع الإسلامي طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها ..

فالذي يناضل في سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع ، إنما كان يناضل بسلاح غير موجود .. بل كان يناضل سلاحاً ماضياً ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التي غلبت في ضرباتها الأولى كل سلاح .

أما بعد مقتل عثمان ، فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية في سوق المنافع الدنيوية ، لأن معاوية قد أهب لها أهبتة قبل عشرين سنة ، وجمع لها أتصاره وكنز لها كنوزه في بلاد وادعة بين جند مطيع .

ولو توافرت لعلی^٤ مادة هذه السياسة ، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها .. فليس أقل نفعاً في هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباعوا من أجلها بدم خليفة ، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين .. فلا يديرون أنفسهم إلى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه .

وأغلب الظن أن علياً كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه ، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه ..

فقد حبيته آداب الخلافة إلى كل طبقة تكره استغلال الحكم ، ولا مطمع لها فيه .. فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم ، فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق ، ونشأت في اليمن - وقد عهدت حكمه قديماً - تلك الطائفة السبئية التي غلت في حبه حتى ارتفعت به إلى مرتبة التقديس ، وانتشرت في مصر وفارس بثور تلك الشيعة الفاطمية والإمامية التي ظلت كامنة في تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال ، وشذت الشام لأنها كانت في يد معاوية ، وشذت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت في يد طلحة والزبير ، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها .. فلولا أن سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة ، وإن العصب من القادة كانوا كلما وجدوا في بقعة من البقاع وجد معهم النفع والاستغلال . لقد كانت محبة أولئك السواد أنفع له من عصب معاوية أجمعين ..

فأغلب الظن - كما أسلفنا - أن علياً كان يخسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة
الدينيوية ، ولا يكسب العصب التي ناصبته العداة . وأيقنت أنه حائل بينها وبين
ماطمحت إليه من الصولة والشراء ..

وهذا على تقدير المقدرين. أن علياً يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة ، وأنه لو اتبعها
لكانت أجدى عليه ..

وليست هي أجدى عليه لو اتبعها ، ولا هو على اجتنابها بلموم ..

وتفضى بنا هذه التقديرات جميعاً إلى نتيجة واضحة تلخصها في كلمات
وجيزة . ونعتقد أنها أعدل الأقوال في وصف تلك السياسة التي كثرت فيها مطارح
النقد والدفاع ..

فسياسة على لم تورطه في غلطات كان سهل عليه اجتنابها باتباع سياسة
أخرى ..

وهي كذلك لم تبلغه مأرب مستعصية ، كان يعز عليه بلوغها في موضعه الذي
وضع فيه وعلى مجراه الذي جرى عليه ..

فليست هي علة فشل منتزع ، ولا علة نجاح منتزع ، أو هي لا تستدعي الفشل
من حيث لم يخلق ، ولا تستدعي النجاح من حيث لم يسلس له قياد ..

ورأينا في سياسته فهما وعلما ، ولكتنا لم نر فيها الحيلة العملية التي هي إلى
الغريزة أقرب منها إلى الذكاء ..

فكان نعم الخليفة ، لو صادف أوان الخلافة ..

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغناته عن المساومة والإسفاف ..

ولكنه لم يأت في أوان خلافة ولا في أوان ملك موطن ، فحمل أعباء النقيضين ،
وأخفق حيث ينبغي أن يخفق أو حيث يعييه أن ينجح .. وتلك آية الشهيد ..

* * *

الفصل السابع

حكومته

كانت الدولة الإسلامية الناشئة على شفا الخطر في إبان الفتنة الداخلية بين عليّ ومعاوية .. ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذي يهددها .. وتتلخص عوامل الأمان في وقائين اثنين :

أحدهما ، أن الإسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح إليها ، فرسخت دعائمه وامتنتت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره ، وسكن إليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى إلى حمكه وهو باق على اعتقاده ..

وثانيهما ، أن أعداء الإسلام كانوا في شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحرق بهم من المخاوف ، وربما صح في الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح في كثير من الطوارق التاريخية الكبرى ، وهي أنها لن تكون شرا محضاً في جميع عواقبها ، ولا تخلو من الخير على قصد من ذويها .. فإن هذه الفتنة قد أغرت أعداء الإسلام بالانتظار ، وأوقعت في روعهم أنهم غنيون عن التحفز والثوب الذي يشق عليهم جهده ، وهم في تلك الحالة من الجهد والإعياء .. فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والأناة ، وألهى القوم عنه ببعض الإتاوات والنوافل .. فتراجعوا متربصين إلى أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه ، وهم وادعون مكفيون شر القتال .. فكان هذا الانتظار الخادع جانباً من جوانب الخير في الفتنة الإسلامية التي فاضت يومئذ بالشروع .

وعلى هذا انقضت أيام عليّ ، وليس للحكومة الإسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح ، أو سياسة الدفاع ، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع .. وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة عليّ ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هو السياسة الداخلية كما نسميها في العصر الحديث ..

* * *

ومن اليسير أن نعرف سياسة الإمام بينه وبين رعاياه ، بغير حاجة إلى الإطالة في التعريف وسرد الأمثال ..

لأنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية .

فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين ، فإذا طريق عليّ هو طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض ، أو هي أقرب الطريقين إلى المساواة وأدناهما إلى رعاية الضعفاء ..
فالناس في الحقوق سواء ..

لا محاباة ولا إجحاف بضعيف ، وقد عمد إلى القطنع التي وزعت قبله على المقربين والرؤساء ، فانتزعتها من القابضين عليها وردها إلى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنة المساواة ، وقال : «والله لو وجدتته قد تزوج به النساء ومملك به الإمام لرددته ، فإن في العدل سعة .. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق» .

وفرض الرفق بالرعية على كل وال ، فلا إرهاب ولا استغلال ولو كانت الحكومة هي صاحبة الحق في المال .

فمن وصاياه المكررة لولاته : «أنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فإنهم خزان الرعية .. ولا تحسموا أحدا عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته ، ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ، ولا عبدا ، ولا تضرين أحدا سوطا لمكان درهم» .

ومن وصاياه في تحصيل الخراج والصدقات : « .. امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بيئتهم فتسلم عليهم ، ولا تخدع بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله . أرسلني إليكم وليّ الله وخليفته لأخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم حق فتؤدوه إلي وليّ الله ؟ .. فإن قال قائل : لا ، فلا تراجع .. وإن أنعم لك منعم ، فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعده أو تمسفه أو ترهقه ، فخذ ما

أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو أبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له .. فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به .. ولا تنفرون بهيمة ولا تفزعها ، ولا تسوون صاحبها فيها ، وأصدع الممال صدعين ، ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله في ماله .. فاقبض حق الله منه ، فإن استقالك فأقله .. » .

وكان دستورهم في تحصيل الضرائب المفروضة على الناس ، أن النظر في عمارة الأرض أبلغ من النظر في استجلاب الضريبة ، فكان يكتب إلى واليه : «تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله .. فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم .. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلا ، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها إسراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر .. » .

أما دستورهم في الولاة والعمال ، فخلاصته ما كتب به إلى الأشتر النخعي يقول له : «انظر في أمور عمالك ، فاستعملهم اختيارا ولا تولهم محاباة وأثرة .. فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام ، فإنهم أكثر أخلاقا وأصح إعراضا وأقل من المطامع إسرافا ، وأبلغ في عواقب الأمور نظرا .. ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو نلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابتعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم .. فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية » .

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال ، كان ينهى أشد النهى عن كشف معائب الناس ، أو كما كان يقول في وصية ولاته : «وليكن أبعد رعيتك

منك وأشتأهم عندك أطلبهم المعائب الناس .. فإن في الناس عيوباً ، الوالى أحق من سترها .. فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك .

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حشه على اتخاذ العيون والجواسيس ، فقال فى وصيته لمحمد بن أبى بكر : « لا تدخلن فى مشورتك بتخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور .. فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .. إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة ، فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، بمن له مثل آرائهم ونفادهم .. وليس عليه مثل أصارهم وأوزارهم » ..

ولم ينكر قط شيئاً من سياسة التولية ، ثم صنع مثله فى عهده ، على كثرة الإغراء حوله باصطناع التقية والمداراة والهوادة قليلاً مع الأقرباء وذوى الأخطار .. ومن زعم غير ذلك ، من ناقديه فى عصره أو بعد عصره ، فإنما هو أخذ فى المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ..

إذ كان مما قيل مثلاً إن علياً أقام عبد الله بن عباس على البصرة ، وعبيد الله بن العباس على اليمن ، ومحمد بن أبى بكر ابن زوجته على مصر .. وهم أقرباؤه وخاصة أهله ، فهو إذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من إظهار الأقرباء بالولايات وإقصاء الآخرين عنها ..

ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ، لأن المقارنة الصحيحة بين العلمين تسفر عن فارق بعيد كالفارق بين النقيض والنقيض ..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية فى غير حكومة الإمام ، ولم يكن للإمام معتمد على غيرهم بعد أن حاربه قريش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار ..

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها ، ولم يؤثروا بالذى خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الشراء من غنائمه وأرزاقه .. بل كانوا يحاسبون على ما فى أيديهم أعسر

حساب ، وكانوا لتضييقه عليهم فى المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقبلون منها ، كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة إلى مكة ..

وقد بلغ من حسابه للولاة أنه كان يحاسبهم على حضور الولاة التى لا يجمل بهم حضورها .. فكتب إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة : «أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغنى أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة .. فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان .. وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو ، فانظر إلى ما تقضيه من هذا المقضم .. فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجهه فنل منه»

واستكثر على شريح قاضيه ان يبنى دارا بشمانين دينارًا ، وهو يرزق خمسمائة درهم .. وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة فى القضاء وحرجا فى الدين ..

فلو أن الإمام اختص أقرباءه بالولايات التى يحاسبون عليها هذا الحساب ، لما كان فى اختصاصه إياهم مستبج حق ولا مستبج مال .. فكيف وهو لا يختصهم إلا بالقليل منها ، ولا يختصهم وله مندوحة عنهم ، أو يختصهم وهم دون غيرهم فى القدرة والأمانة ؟

فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف ، وكل ما توحى إلى الناقد بها أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك .

وقد انقسمت طريق الخلافة ، وطريق الدولة الدنيوية فى كل أمر من الأمور على عهد الإمام ولم تنقسم فى مسألة الولاة أو مسألة الاستغلال وكفى .

وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين فى عهده قيام الفكرة العالمية الى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية ..

فالدولة الدنيوية تشد أزرها بالعصبية الجنسية ، والخلافة الدينية تشد أزرها بالإخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس ..

وقد كانت القبيلة من أنصار الإمام ، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية فى سبيل الرأى والعقيدة ..

وكان أنصار الإمام أبدا من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش خاصة ، وبين بنى هاشم على الأخص ، وبين قبائل العرب على التعميم ..

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة علي^ع أو خلافته ، أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة .. فإذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذلك ، أيا كانت السياسة المتوخاة ، وبالغا ما بلغ نصيبها من السداد والصواب ..

ولنا أن نعمم هذا الحكم الإنساني في كل شأن من شئون الحكومة ، قضى به علي^ع في عهده أو عهود الخلفاء من قبله ..

فالروح الإنساني هو قوام الحكومة الإمامية ، كما ينبغي أن يكون ، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الأدمية .. وهي طاقة لها مالها من حدود ..

جىء إلى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه في حملها ، فاستفتى الإمام .. فزفتى بوجود الإبقاء عليها حتى تضع جنينها ، وقال له : «إن كان لك سلطان عليها ، فلا سلطان لك على ما في بطنها» .

وانتزع امرأة من أيدي الموكلين بإقامة الحد عليها .. وسأله عمر فقال : «أما سمعت النبي ﷺ يقول : رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن الميتلى حتى يعقل اه قال : «بلى» قال : «فهذه مبتلاة بنى فلان .. فلعله أتاها وهو بها» قال عمر : «لا أدري» قال : «وأنا لا أدري» فترك رجمها للشك في عقلها ..

وأتى عمر بامرأة أجهدها العطش ، فمرّت على راع فاستسقته .. فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها .. ففعلت ، فشاور الناس في رجمها ، فقال علي^ع : «هذه مضطرة إلى ذلك .. فخلّ سبيلها» .

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة في القصاص وتفسير الشريعة ..

غير أنه قد حاد عن هذه السنّة في أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره ، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس .

وذلك هو إحراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلهة ، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة ، وقيل إنهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون . . فأتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلاً على أنه هو المعبود . . إذ لا يعذب بالنار إلا الله .

فهؤلاء المفسدون المفتونون ، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التي لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة . . ولكن الإحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب ، وليس في اجتنابها خطر على الشريعة ، ولا على النظام . . إنما شفيح الإمام في هذه الصرامة أنه كان هو المستهدف لتلك الضلالة ، وهو مظنة الريبة في الهوادة فيها . . فهو يتزه عدله عن كل ظن حيث تظن بالهوادة جميع الظنون ، وقد أحرق الذين ألوهه . . ونهى عن قتال الخوارج الذين حكموا بكفره ، إلا أن يفسدوا في الأرض أو يبدعوا بالعدوان على برىء . وفي هذا الانصاف بين مؤلّيه ومكفره شفاعة من تلك الصرامة في العقاب .

وكان الإمام يذكر أبداً في حكومته أن الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد . .

ومن ذلك ما نقله الطبري عن بعض الأسانيد ، حيث قال : « رأيت علياً عليه السلام خارجاً من همدان ، فرأى فتية يقتتلان ففرق بينهما . . ثم مضى فسمع صوتاً : يا عوثاً بالله فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله ، وهو يقول : « أتاك العوث . . » فإذا رجل يلازم رجلاً ، فقال : « يا أمير المؤمنين . . بعث هذا ثوباً بتسعة دراهم وشرطت عليه ألا يعطيني مغموزاً ولا مقطوعاً ، فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها لي فأبى فلزمته فلطمني » فقال : « أبدله » ثم قال : « بينتك على اللطمة » فأتاه بالبينة . . قال : « دونك فاقتص » قال : « إني قد عفوت يا أمير المؤمنين » قال : « إنما أردت أن أحسأط في حقلك » . . ثم ضرب الرجل تسع درات ، وقال : « هذا حق السلطان » .

وكان يكرر هذا الحكم في كل ما يشابهه من أمثال هذا العدوان ، وهو أشبه المذاهب بذهب الحكومات العصرية في القصاص .

ويقال الكثير عن مناهج الإمام في الحكومة وسياسة الرعية بما يغنى فيه هذا الإجمال عن التوسع في التفصيل ..

ولكن الذى لا ينسى فى سياق الكلام عن الإمامة والدعوة العالمية ، أنه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة إلى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازى سليل الحجازيين ..

وقد اختار الكوفة ، فكانت أوفق عاصمة للإمامة العالمية فى تلك المرحلة من مراحل الدولة الإسلامية ..

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام ، وكانت العاصمة الثقافية التى ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات .. فهى أليق العواصم فى ذلك العصر بحكومة إمام ، وما زالت الإمامة لاحقة بعلق ومحيطة به حيث تحول وحيث أقام ..

* * *

الفصل الثامن

النبي والإمام والصدابة

أحاديث النبي عليه السلام في فضل عليٍّ ومحبته متواترة في كتب الحديث المشهورة .. منها ما انفرد به ، وهو حديث الخيمة الذي رواه الصديق رضي الله عنه حيث قال : « رأيت رسول الله ﷺ خيم خيمة ، وهو متكئ على قوس عربية ، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : معشر المسلمين .. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، ولي لمن والاهم ، لا يحيهم إلا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقي الجد رديء الولادة » .

ومنها ما اشترك فيه هو وغيره ، وهو الذي رواه السيدة عائشة حيث سئلت : « أي الناس أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ .. قالت : فاطمة .. فقيل : من الرجال ؟ .. قالت : زوجها .. إن كان ما علمت صواما قواما » وقد روى حديث في هذا المعنى ، حيث سئل رسول الله عن أحب الناس إليه ، فقال : « من النساء عائشة ، ومن الرجال أبوها » .

ولا تناقض بين الحديثين ، إذ كانت السيدة عائشة هي التي تروى الحديث الأول ، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه ، أو كانت تروى عن أقرباء النبي من لحمه ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها .

وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية في فضل عليٍّ ومحبته ومنزلته عند الله ونبيه ، وهي تعد بالعشرات .

وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث ، وفي أسانيدها ، ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للإمام أو التشيع عليه .. وهو شرح طويل لا يهمننا منه هنا أن نتصرف فيه فريقا على فريق ، أو نرجح مذهبنا على مذهب .. إذ ليس فهم الإمام موقوفا على تغليب أي الفريقين وتعزيز أي المذهبين ، وفهم الإمام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعنيه ..

فمهما يختلف الرواة في تأويل الأحاديث ، فالذى يسعدك أن تجزم به من وراء اختلافهم ، أن علياً كان من أحب الناس إلى النبي ، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق ..

لقد كان النبي عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين .. فأى عجب أن يخصص بالحب من بينهم إنسانا ، كان ابن عمه الذى كفله وحماه ، وكان ربيبه الذى أوشك أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله فى القراش . وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته ، وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشئ فى سنه ؟ ..

حب النبي لهذا الإنسان حقيقة لا حاجة بها إلى تأويل الرواة ولا إلى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية ، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف .

وما لا خلاف فيه كذلك ، أنه عليه السلام كان لا يكتفى بحبه إياه .. بل كان يسره ويرضيه أن يحببه إلى الناس ، وكان يسوؤه وبغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه ..

بعث رسول الله علياً فى سرية ليقبض الخمس ، فاصطفى منه سبية ، وافترق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك إلى رسول الله . وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدعوا بالرسول ، فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم ، ثم انصرفوا إلى رحالهم .. فقالم أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه .. فتناوبوا الحديث واحداً بعد واحد فى معنى كلامه . فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال : «ما تريدون من علي؟» .. ماتريدون من علي؟ .. ما تريدون من علي؟ .. علي منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن بعدى» وقال لأحدهم فى روايات أخرى . «أتبغض علياً؟» قال : «نعم!» قال : «لا تبغضه ، فإن له فى الخمس أكثر من ذلك ، أى أكثر من السبية التى اصطفاها .. لا تبغضه ، وإن كنت تحبه فازدد له حبا» .

* * *

وبعث رسول الله علياً إلى اليمن ، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة ليربحوا إبلهم ، فأبى .. فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم وتولى شكايته

سعد بن مالك بن الشهيد ، فقال : «يارسول الله .. لقينا من عليّ من الغلظة وسوى الصعبة والتضييق ..» ومضى يعدد ما لقيه ، حتى إذا كان في وسط كلامه ضرب رسول الله عليّ فخذه ، وهتف به : «ياسعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قولك لأخيك عليّ ؟ فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله»

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى ، فقام رسول الله فيهم خطيباً يقول لهم :
ياأيها الناس .. لا تشكوا عليّ ، فوالله إنه لجيش في ذات الله ..

ويلوح لنا أن النبي عليه السلام كان يحب عليّاً ويحببه إلى الناس ، ليمهد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات ، ولكن عليّ أن يختاره الناس طواعية وحباً .. لا أن يكون اختياره من حقوق العصبية الهاشمية ، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه ، ولم يحذر خطراً على الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس سبيلاً إلى الملك والدولة في بني هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا وأقصى معظم بني هاشم عن الولاية والعمالة لينتفى هذه الظنة .. ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشئبة ..

فالتزم في التمهيد لعليّ وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة إلى التقديم والوكالة ، أرسله في سرية إلى فدك لغزو قبيلة بني سعد اليهودية ، وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام ، وأرسله إلى منى ليقراً على الناس سورة براءة . وبين لهم حكم الدين في حج المشركين وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون إلى غزوة تبوك .. ولم يفته مع هذا كله أن يلّمح الجفوة بينه وبين الناس ، وأن يكله إلى السن تعمل عملها مع الأيام ، ويكلهم في شأنه إلى ما ارتضوه ، عسى أن تسنح الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه ..

هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخيلها العقل ، وتنسب عنها الحوادث بين النبي وابن عمه العظيم ..

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هي وحدها العلاقة الممكنة المأمولة ، وكل ما عداها فهو بعيد من الإمكان بعده من الأمان .

فهو يحبه ويمهد له وينظر إلى غده ، ويسره أن يحبه الناس كما أحبه ، وأن يحين الحين الذي يكون فيه أمورهم إليه ..

وكل ما عدا ذلك ، فليس بالممكن وليس بالعقول ..
 ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة ..
 وليس بالممكن أن يحبهما له ، ونسى في سبيل هذا الحب حكمته الصالحة
 للدين والخلافة ..
 وإذا كان قد رأى الحكمة في استخلافه ، فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لا يجهر
 به في مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع ..
 وإذا كان قد جهر به ، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته
 وعصيان أمره . إنهم لا يريدون ذلك مخلصين ، وإنهم إن أرادوه لا يستطيعونه بين
 جماعة المسلمين ، وإنهم إن استطاعوه لا يخفى شأنه ببرهان مبين ، ولو بعد حين ..
 فكل أولئك ليس بالممكن ، وليس بالعقول ..
 وإنما الممكن والعقول هو الذي كان ، وهو الحب والإيثار والتمهيد لأوانه ، حتى
 يقبله المسلمون وينتهي له الزمان .

* * *

أما العلاقة بين عليٍّ وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء ، فهي علاقة الزمالة
 المرعية والتنافس الذي يثوب إلى الصبر والتجمل والتقية ..
 فليس فيما لدينا من الأخبار والملاحم ما يدل على ألفة حميمة بينه وبين أحد
 من الصحابة المشهورين ، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة ويقضاء .. بل
 ليس في أخباره جميعاً ما يدل على طبيعة تحقد على الناس ، وأن دلت أحيانا على
 طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون .
 فمن المعلوم أن عليا كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقه ، وأنه لم يزل مدفوعا
 عن حقه هذا منذ انتقل النبي عليه السلام إلى الرفيق الأعلى . واحتج المهاجرون
 على الأنصار في أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات الله عليه . قال : «لما احتج
 المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فلجوا^(١) عليهم .. فإن يكن
 الفلج به فالحق لنا دونكم ، وإن بغيره فالأنصار على دعواهم» .

(١) فلجوا : أي انتصروا عليهم ..

كذلك كان رأيه فى الخلافة يوم يبيع بها الصديق ، ثم يبيع بها الفاروق ، ثم يبيع بها عثمان ..

وجاءت قضية الإرث بعد قضية الخلافة فى أوائل عهد الصديق ، فباعدت الفرجة بين القلوب ، وأطالت العزلة بين الأصحاب .. وخلاصة هذه القضية ، أن فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا ميراثهما فى أرض فدىك وسهم خيبر ، فذكر لهم الصديق حديث النبى عن إرث الأنبياء ، ونصه فى روايته : «نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث .. ما تركناه فهو صدقة .. إنما يأكل آل محمد من هذا المال »

فغضبت فاطمة ، ولم تكلمه حتى ماتت . ودفنها على ليلا ، ولم يؤذن بها أبى بكر .. وقيل إن علياً تخلف عن البيعة ستة أشهر إلى ما بعد وفاتها . ثم أرسل إلى أبى بكر أن اتنا ولا يأتنا معك أحد .. وتلقاه وعنده بنو هاشم ، فقال : «إنه لم يمنعنا أن نبايعك يا أبى بكر إنكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك ، ولكننا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا» .

ومع هذا اليقين الراسخ عنده فى حقه وحق غيره ، نرجع إلى سيرته وأحاديثه .. فترى ولا ريب أنها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية فى هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولا نجد فى خطبه ومساجلاته التى ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله ، أو يتجاوز بها حد الحجة التى تنهض بحقه .. بل الغريب أنه لزم هذا الحد ولم يتجاوزه إلى جمحة غضب تفلت معها بوادى اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائمه .. !



وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وجمالهم مجاملة الكرم بمسلكه ومقاله . ولم يبد منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم .. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا رمى بها كما يأنف العزيز الكرم . وفى ذلك يقول من خطاب إلى معاوية : «ذكرت إبطائى عن الخلفاء وحسدى إياهم والبغى عليهم ، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهية لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك» .

وأولى أن يقال إن دلائل وقائه فى حياتهم ، وبعد ذهابهم ، كانت أظهر من دلائل جفائه . فإنه احتضن ابن أبى بكر محمداً وكفله بالرعاية ورشحه للولاية ، حتى

حسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمي ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه ، وهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ..

ويخطون جدا من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نقمة منه في أبنائه .. فقد أسرع عبيد الله بن عمر إلى الهرمزان ، فقتله انتقاما لأبيه ، ولم ينتظر حكم ولي الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه . فلما استفتى في هذه القضية افتى بالقصاص منه ، ولم يغير رأيه حين تغير رأى عثمان ، فأعفاه من جريرة عمله .. لأنه هو الرأى الذى استمده من حكم الشريعة كما اعتقده وتجراه ، وبهذا الرأى دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم ، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحدا غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقائه فى التآمر عليه .

وانك لن تجد إنسانا أعرف بالعهد ، ولا أصون له ممن يتذاكره فى حومة الحرب ، ويرى أن التذكير به ينزع السلاح من الأيدي ، ويعود بالخصمين المتناجزين إلى الصفاء والإخاء ..

فما حارب على^١ عدو له سابقة مودة به إلا أن يذكره بتلك السابقة ويستنجد بالصداقة الأولى فيها على العداوة الحاضرة ..

ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة فى وقعة الجمل ، وهما ملحان فى حربه وإنكار بيعته .. فخرج حاسرا لا يحتذى بدرع ولا سلاح ، ونادى :

يازبير ، اخرج إلى^٢ .. فخرج إليه شاكا فى السلاح ، وسمعت السيدة عائشة فصاحت : واحرباه ! .. إذ كان خصم على^٣ مقضيا عليه بالموت كائنا ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال

فلما تقابل على^٤ بالزبير اعتنقا ، وعاد على يسأله : «ويحك يازبير ما الذى أخرجك ؟ ..»

قال : «دم عثمان» .

قال : «قتل الله أولانا بدم عثمان»

وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبي : «والله ستقاتله وأنت له ظالم» .

فاستغفر الزبير وقال : «لو ذكرتها ما خرجت»

* * *

ولما وقف على³ على جثة طلحة بكى أحر بكاء ، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول : «عزيز على⁴ أن أراك أبا محمد مجندلا تحت نجوم السماء» وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة .

والمودة عند فارس كعلی⁵ عهد محفوظ وموثق مذكور ، إن فاتها أن تكون حنان قلب أو ألفة شعور .

ويخيل إلينا إنه لم يرزق قط صداقة الألفاء الذين يرعاهم ويرعونه لأنه يحبهم ويحبونه ، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنة العهود وديدن القروسية ، فلم تزل بينه وبينهم إيماءة إلى سلاح مغمد أو سلاح مشهور .

ومثل على⁶ لا يرزق صداقة الألفاء ، لأنه من أصحاب المزايا التي تغرى بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسيرة والمداراة .

فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكي ، موصول النسب بأعرق الأرومات . فإن لم يحسد هذا ، فمن يحسد ؟ ..

وإن حسد ، فما الذي يفل من غرب حاسديه ؟ .. وما الذي يفرض بهم إلى القصد في عدائه والتأليب عليه ؟ ..

إنهم يستبعدون يومه في الإمارة والسلطان ، وإذا استقربوا يومه في الإمارة والسلطان فلا مطمع لهم في النفع على يديه وهو قوام بالقسط على الأموال والحقوق ، فنصيبه إذن منهم نصيب الحسود الذي لارجاء له في هواده من حاسديه ، وليس أحق من الناس على صاحب عظمة لم يطمعوا في نفعه ولم يزالوا على طمع في النفع من خصومه ، ووليته بهم أكبر وأدعى حين لا يصطنع

الدهان ولا يعتمد معهم إلى الحتل والروضان .. وعلى أنه لو داهنهم ورواغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التي لا تحميها حماية من طمع أو نكاية ، أو كما قال الحكيم الغربي : «إن نسي أنه أسد لم ينسوا أنهم كلاب» .



وهكذا فُرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغربية في ديارها وبين ألقها وأنصارها ..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة ، كانت علاقة الزمالة التي ينوب فيها الواجب مناب الألفة ..

والعلاقة بينه وبين الخصوم ، كانت علاقة حسد غير مكفوف ، وبغض غير مكتوم ..
والعلاقة بينه وبين سواد العامة ، كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا ينفذون إلى لبابه ، وإن قاربه أناس معجبين ، وباعده أناس نافرين ..
وتلك أيضا أية الشهيد ..



الفصل الخامس

تفاهته

السنة الخلق أقلام الحق ..

كلمة سائغة ليس أصدق منها إن صدقت ، وهي صدق في كثير من الأحيان .. ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التي ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل ، فيخيل إلينا أنها خاطر عابر يسمع ويستملح ويشفع له القدم .. فنقبله كرامة له كما نقبل السمين والغث أحيانا من وقار المشيب ، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد ولا يصبر على مراجعة العلم والقياس ، ثم نعرضه اتفاقا على العلم والقياس .. فإذا به قد احتمل من النقد العسير ما ليست تحتمله آراء العلماء وقضايا الحكماء ، وإذا بالخطأ في هذه القولة الشائعة أو في هذا اللقب المرجح أقل من كل خطأ يحصى على كلام مخلوق ..

من هذه الألقاب الشائعة ، لقب الإمام الذي اختص به علي^ع بين جميع الخلفاء الراشدين ، والذي يطلق إذا أطلق فلا ينصرف إلى أحد غيره ، بين جميع الأئمة الذين سموا بهذه السمة من سابقه ولاحقه ..

ولمَ وليس هو بفرد في الإمامة بجملة معانيها ؟ ..

ألم يكن الصديق إماما كعلي^ع ؟ ألم يكن الفاروق إماما كعلي^ع ؟ .. ألم يكن عثمان إماما كعلي^ع ؟ .. ألم يكونوا خلفاء راشدين إذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟ ..

بلى كانوا أئمة مثله ، وسبقوه في الإمامة ..

ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك . ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر ، وصفة تناوئها صفة ، ولا أن يصبح رمزا للخلافة يقترون بها ولا يقترون بشيء غيرها .. فكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الإمام بغير تعقيب ولا تذييل هو الإمام كلما وقع الاشتباه والالتباس .

وذاك هو عليّ بن أبي طالب ، كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة . . فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة فى الطرقات ، بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف . .

* * *

وخاصة أخرى من خواص الإمامة ، ينفرد بها عليّ ولا يجاربه فيها إمام غيره ، وهى اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت فى صدر الإسلام . فهو منشئ هذه الفرق أو قطبها الذى تدور عليه . وندرت فرقة فى الإسلام لم يكن عليّ معلما لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، تقول فيه وترد على قائلين .

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة . . فهو أستاذ هؤلاء جميعا بالسند الموصول . .

أما الفرق التى جعلته موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنة ، فتكون قد ذكرت جميع الفرق الإسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير .

هنا تشترك الفروع وتتأشب الأفاين ، فترى الفرقة الواحدة مزيجا من التصوف والسياسة ، كالباطنية على اختلافها . . وقد تتراعى بها الفروع حتى تصل إلى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء ، وهم طرف مقطوع أو موصول ، من بعض تلك الأصول . .

فالإمام أحق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الإمام ! . . ولقد كانت له آية من آيات الشهداء فى كثير من صفاته ، وكثير من معارض حياته ، وطوارئ أوقاته . .

وكانت له فى الإمامة آية أخرى من هذه الآيات . . فأية الشهداء أنهم يبخسون حقهم فى الحياة ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات . . أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا فى إقبالها وإدبارها ، كما قال الإمام رضى الله

عنه : «إنها إذا أدبرت عن إنسان سلبته محاسن نفسه ، وإذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره» .

وكذلك اتفق للإمام في صفة الإمامة ، كما اتفق له في معظم الصفات ..
فقل أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه ، وقل أن تحدث الناس بفصل لم ينحلوه إياه ، وقل أن توجه الشناء بالعلم إلى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه ..

نحلوه ديوانا من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها إلا عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه ..

ونحلوه علما سموه علم «الجفر» وزعموا أنه علم النجوم والأزياج الذي يكشف عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان .

ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة في أيام العباسيين وما تلاها ..

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف ، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق .

وبعض ما نحلوه يزيده قدرا ويرفعه شأننا ، ألا تصح نسبتها إليه ... !

وبعض ما بقى له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه .. كاف لتعظيم قدره وإثبات إمامته في عصره ، وبعد عصره .

وعندنا أنه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير ، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم أنه سئل : «من أشعر الناس ؟» قال : «إن القوم لم يجروا في حلقة تعرف الغاية عند قصبته .. فإن كان ولا بد فالملك الضليل» .

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب «المدارس» والأغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب .

لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الإجابة فى شعره ، والنبي عليه السلام يرى ذلك حيث سأله أن يأذن لعلى فى هجاء المشركين فقال : «ليس بذلك» ..
وأحالهم إلى حسان بن ثابت ، وندب له من يبصره بمثالب القوم ..
وكل شعره الذى رجحت نسبه إليه من قبيل هذه الأبيات التى وصف بها قبيلة همدان فى وقعة صفين :

ولما رأيت الخليل ترجم بالقننا	فوارسها حممر النحور دوام
وأعرض نقع فى السماء كأنه	عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند فى الكلاع وحمير	وكندة فى لحم وحى جسام
تيممت همدان الذين هم هم	إذا ناب دهر جنتى وسهامى
فجاوبنى من خيل همدان عصابة	فوارس من همدان غير لثام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها	وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت رضوانا على باب جنة	لقلت لهمدان : ادخلوا بسلام
أو من قبيل هذه الأبيات :	

محمد النبى أخى وصهرى	وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يمسى ويضحى	يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى	منوط لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ولدائى منها	فأيكم له سهم كسهمى
سبقتكم إلى الإسلام طرا	صغيرا ما بلغت أوان حلمى
وصليت الصلاة وكنت فردا	فمن ذا يدعى يوما كيسومى

وقد نظم شعرا ولا ريب ، كما يدل سؤالهم النبى عليه السلام أن يأذن له فى هجاء من هجأهم ، ولم ينسب إليه شعر .. صح أو لم يصح ، أجود بما قدمناه . وليس فيه ما يسلكه بين المجودين من الشعراء ، أو يلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء ..

* * *

أما كتاب الجفر أو علم الجفر ، فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل في جميع ما نحلوه وأضافوا إليه . . فمثل على في تقواه وفضله ، لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه ، وليس هو بما يليق بورعه ولا ذكائه . وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم ، ومن الحق الذي لا خلفة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها ، هي من مدخول الكلام عليه . . وما أضافه النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل . .

ولا يحزم مثل هذا الجزم في أمر المقامات التي خلت من بعض الحروف ، لأن العقل لا يمنعها قطعا كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من ازياج النجوم ، ولكننا نستبعد جدا أن تكون هذه المقامات من كلام الإمام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن ، وحاجة النسبة هنا إلى سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير .

وكذلك نستبعد أنه قال لكاتبه ليظهر علمه بغريب اللغة : «ألصق روانفك بالجيوب وخذ المزير بشناترك واجعل حندورتك إلى قيهلى حتى لا أنفى نفية إلا أودعتها بحماسة حلجلانك»

أى «ألصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك واجعل عينيك إلى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة إلا وعيتها فى سواد قلبك»

فإن الولوج بإظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف فى صدر الإسلام ، ولم يلتفت الناس إلى ادعائها إلا بعد استعجاب العرب ونذرة العارفين .

ومثل هذا ، ما نسبوه إليه حيث زعموا أنه قال : «ما تر بعلبنت قط» أى ما شربت اللبن يوم الأربعاء ، و «ما تسبتسمكت قط» أى ما أكلت السمك يوم السبت «وما تسرولقمت قط» أى ما لبست السراويل قائما . . إلى أشباه هذه الخترعات التي تستغرب لفظا ومعنى واعتقادا من رجل كالإمام فى صدر الإسلام .

غير أننا نسقطها جميعا ، فلا نسقط بها فضلا ترجع به موازين الإمام فى حساب الثقافة . . بل نحسبها فضلا - إن شئنا - ونسقطها فيبقى له بعدد السهم الراجع فى تلك الموازين . .

تبقى له الهداية الأولى فى التوحيد الإسلامى ، والقضاء الإسلامى ، والفقہ

الإسلامي ، وعلم النحو العربي ، وفن الكتابة العربي . . بما يجوز لنا أن نسميه أساسا صالحا لموسوعة المعارف الإسلامية في جميع العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول من الإسلام . .
وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية ، على تباين العصور . .

ففي كتاب نهج البلاغة ، فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالمقائد، وأصول التأليه وحكمة التوحيد .

وربما تشكك الباحث في نسبة بعضها إلى الإمام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالأراء والمصطلحات التي اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الإغريقية والأعجمية ، ولا سيما الكلام على الأضداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصوفات ، ولكن الذي يقرؤه الباحث ولا يشك في نسبه إلى الإمام أو في جواز نسبه إليه ، قسط واف لتحقيق رأى القائلين بسبق الإمام في مضمارة علم الكلام ، واعتراف المعترفين له بالاستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الأراء والمقولات . وهو على جملة خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق في كماله ، ومن أمثله قوله : « الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالا ، فيكون أولا قبل أن يكون آخرًا ، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ، ويذهب عنه ما بعد عنها ، وكل بصير غيره يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل باطن غيره ظاهر ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان ، ولا استعانة على من شاور ، ولا شريك مكاثر ، ولا ضد منافر ، ولكن خللاق مربوبون وعباد داخرون - أي ضارعون - لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤده خلق ما ابتداء ولا تدبير ماذرا ، ولا وقف به عجز عما خلق ، ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم وأمر مبرم . . » .

أما القضاء والفقہ ، فالشہور . عنہ أنه كان أقضى أهل زمانہ وأعلمہم بالفقہ والشريعة . . أولم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقہ وأقدر على إخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور . وكان عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة ، قضية ولا أبا حسن لها : لأنه كان في هذه المسائل يتجاوز التفسير إلى التشريع ، كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح . .

وفي أخباره ، ما يدل على علمه بأدوات الفقہ كعلمه بنصوصه وأحكامه . . ومن هذه الأدوات علم الحساب الذي كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف في معضلات الموارث ، لأنه كان سريع الفطنة إلى حيله التي كانت تعد في ذلك الزمن ألغازا تكاد في حلها العقول ، فيقال إن امرأة جاءت إليه وشكت إليه أن أختها ماتت عن ستمائة دينار ، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد . . فقال لها : لعلة ترك زوجة وابنتين وأماً واثنى عشر أختاً وأنت ؟ . . فكان كما قال .

وسئل يوماً في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين . فأجاب من فوره : صار ثمنها تسعاً . وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية ، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة . .

وفي هذه الإجابات ، دليل على الذكاء وسرعة البديهة . . فضلاً عن الدلالة الظاهرة على العلم بالموارث والحساب . .

وإذا قيل في قضائه إنه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه ، صح أن يقال في علم النحو إنه لم يكن أحد أوفر سهماً في إنشاء هذا العلم من سهمه . وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلي شكاً إليه شيوخ اللحن على ألسنة العرب ، فقال له : اكتب ما أملئ عليك ، ثم أملاه أصولاً منها : إن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل . . وإن الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمّر ، وشيء ليس بظاهر ولا مضمّر . . وإنما تتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمّر . . يعني اسم الإشارة على قول بعض النحاة ، ثم قال لأبي الأسود : انح هذا النحو يا أبا الأسود . . فعرف العلم باسم النحو من يومها .

وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند إلى المقابلة بين اللغات الأخرى في اشتقاق أصولها النحوية ، ولا سيما السريانية واليونانية . . ولكن الروايات العربية لا تنتهي بنا إلى مصدر أرجح من هذا المصدر ، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلا أن يكون الإمام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربي من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأم التي تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولا سيما السريان الذين سبقوا إلى تدوين نحوهم ، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية .

وليس الإمام علي[ؑ] أول من كتب الرسائل ، وألقى العظات ، وأطال الخطب على المنابر في الأمة الإسلامية . .

ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذي يقتدى به في الأساليب . . لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين لا صياغة متشئين ، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن الأداء وصناعة التعبير ، ولكن الإمام عليا تعلم الكتابة صغيرا ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنن والتجويد . . فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو فيما نرى أول أساليب الإنشاء الفني في اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وتأتى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذي أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية . . فديوانه الذي سمي «نهج البلاغة» أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح النسبة إليه صحيح الدلالة على أسلوبه ، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب إلى الإقناع من دلالة الأسانيد التاريخية ، لأن طابع «الشخصية العلوية» فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنايا الحروف ، يوحى إليك حيثما وعيته أنك تسمع الإمام ولا تسمع أحد غير الإمام ، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام . .

على أننا نبالغ ما نبالغ في تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الإمام ومن

فنون ثقافته العامة ، ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا - بل توجب علينا - أن نسأل :
كيف يتسنى العلم بهذا لاي كان من الناس في مثل ذلك الزمان ؟ .
والسؤال لا بد منه ، ولا نظن قارئاً من قراء تاريخ الإمام لم يخطر هذا السؤال بباله
ولم يرد على لسانه .

ولكن لا بد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك . .
فالباعث عليه أننا نبالغ في تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة
العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين . .
لكن البداوة لم تكن في الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التي
تخطر لنا للوهلة الأولى ، فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم ،
وكانت للمعارف الإنسانية أشعتها التي تتخلل الجزيرة العربية من قدم العصور .
وحسبنا من أمثلة ذلك ، مثال واحد في معسكر الإمام نفسه يفنى عن الأمثلة
من قبيله . .

وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، وهو يهودى ابن زنجية مولود
في بلاد اليمن ، ومذهبه الذي اشتهر به هو مذهب الرجعة الذي يجمع فيه بين
قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود ، وقول أهل بظهور الإله الذي يتقمص جسم
إنسان ، وقول النصارى بظهور المسيح ، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من أقرناء
الملوك والأمراء . .

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يبنى من أهل الجزيرة ، إذا تخيلنا أن الجزيرة في
حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبنى إسرائيل ، وأن
الامة العربية تخلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية ،
أو طريق المحاكاة الاجتماعية ، أو طريق الدراسة والسمع . .

وقد كانت عاصمة الإمام في الكوفة . . وكانت مثابة الغادين والرائحين من
أبناء الحضارات المعروفة في العالم بأسره ، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو
بجوارها أناس كانوا ينظرون في كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء في سيرة
عمر بن الخطاب ، ومنهم من كان ينظر في النجوم على طريقة الفرس والروم ، وحذر

بعض هؤلاء الإمام أن يسير إلى حرب الخوارج في طالع كوكب من الكواكب المنحوسة ، فقال له : «أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه سوء ؟ .. فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه» ..

* * *

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة ، قائلا : «ياكم وتعلم النجوم ، إلا ما يهتدى به في بر أو بحر .. فإنها تدعو إلى الكهانة ، والمنجم كالكاهن . والكاهن كالساحر ، والساحر كالكاfer ، والكاfer في النار ! » .

وقد لبث على بن أبي طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعا أو يكاد ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة ، متفرغا أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة .. يتأمل كل ما سمع ، ويراجع كل ما قرأ ، ويعرف كل ما يعرف ، بمن يلقاه ، ويستطلع أنباءه وأراه وقضاياه .. فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلا في بلاد الإسلام على تلك الأيام .. ففيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية أن تفهم ماقد فهمه الإمام ، وأن يثبت ما أثبتته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام ..

* * *

على أن هذه الفنون من الثقافة - أو جلتها - إنما تعظم بالقياس إلى عصرها والجهود التي بذلت في بدايتها .

فحصلة الإمام من علم النحو - مثلا - عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التي دونها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه .. وهكذا يقال في الحساب والمسائل العلمية التي من قبيله ، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر .. وهي في ابتدائها أصعب جدا منها في أطوارها التي لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها ..

أما فن الثقافة الذي يقاس بمقياس كل زمن ، فردا هو عظيم في جميع هذه المقاييس ، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات ، فلذلك هو فن الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التي قلنا أننا إنفا نسجل له في ثقافة الأمم عامة كما نسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية ، على تباين العصور .

فالكلم الجوامع التي رويت للإمام طراز لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة .

وقد قال النبي عليه السلام : «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»
فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام على في حكمته التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء ...

فهى من طراز الحكم الماثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان ابن داود .

ويزيد عليها أنها أبدع في التعبير ، وأوفر نصيبا من ذوق الجمال ، كقوله مثلا :
«نفس المرء خطاه إلى أجله» .. أو قوله : «من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة» .. أو قوله : «المرء منحوي تحت لسانه» أو قوله : «الحلم عشيرة» .. أو قوله :
«من لان عوده كثفت أغصانه» أو قوله : «كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع» إلى أشباه هذه التعبيرات الحسان التي تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم : صدق المعنى ، أو بلاغة الأداء ، أو جودة الصناعة ..

وبعض أقواله ينضح بدلائل «الشخصية» التي تلازم صاحب الفن الأصيل ، فتلبس معانيه لباسا من خوالج نفسه وأحداث زمانه ، كما قال : «صواب الرأي بالدول . يقبل بإقبالها وينهب بذهابها» أو كما قال : «ما أكثر العبر وأقل الاعتبار» .. أو كما قال : «شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فإنه أخلق للغنى وأجدر بإقبال الحظ عليه» .. أو كما قال : «إذا هبت أمرا فقع فيه ، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه» .. أو كما قال : «لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع» ..

وله عدا هذه الحكم التي تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه ، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ، وتنفذ إلى كل سامع يفتن لها كقوله : «كل معدود منقوض وكل متوقع أت» أو قوله : «إذا كثرت القدرة قلت الشهوة» أو قوله : «أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه» .. أو قوله : «من نصب نفسه للناس إماما ، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره» .. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم» أو قوله : «الفقيه

كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يوتسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله» .. أو قوله : «قيمة كل امرئ ما يحسنه» أو قوله : «العاقل يضع الشيء مواضعه» أو قوله : «الصبر صبران : صبر على ما تكره ، وصبر على ما تحب» أو قوله : «من ملك استأثر» أو قوله : «الناس أعداء ما جهلوا» ... أو قوله : «القرابة إلى المودة أحوج من المودة إلى القرابة» ..

* * *

وله في المواقف المرجلة كلمات هي أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة .. فلما خرج وحده لبعض المهام التي تردد فيها أنصاره ، قالوا له يشيرون إلى أعدائه : «يا أمير المؤمنين نحن نكفيكمهم» فقال : «ما تكفوتنى أنفسكم فكيف تكفوتنى غيركم ؟ .. إن كانت الرعايا قبلى لشكرو حيف رعاتها ، وإننى اليوم لأشكو حيف رعيتى ، كأنتى المقود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الرزعة»

ورثى محمد بن أبى بكر حين بلغه مقتله على أيدي أصحاب معاوية فقال : «إن حزننا عليه قدر سرورهم به ، إلا أنهم نقصوا بغيبنا ونقصنا حبيبنا» .

فكل نط من أنماط كلامه ، شاهد له بالملكة الموهوبة فى قدرة الرعى وقدرة التعبير .. فهو ولاشك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأوتوا الحكمة ، وفصل الخطاب .

وقد أخطأ «موير» Moyer المؤرخ الإنجليزي حين قال : أن علياً حكيماً كسليمان ، وهو مثله حكمته لغيره .. يعنى أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة ، فإن «موير» أحجى أن يفرق بين عمل الإنسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه . ولاشك أن علياً كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصحين بما ينصح به الناس . أما أنه ينتفع بحكمته ، فالطبيب لا يقترح فى علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه .. فقد يكون الإخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء .

ولا يفوتنا أن بعض هذه النصائح ، قد نسب إلى قالة من الأوائل غير الإمام رضى الله عنه ، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى إلى الصحيح والمنحول من كلام الإمام الذى جمعه الشريف الرضى فى «نهج البلاغة» وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون ، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب إلى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة فى التعريف بعبقريّة الإمام .. فحسبنا أن أسلوب الإمام

معروف في بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه ، وإن طابع هذا الأسلوب شائع في بعض الكتاب لا تقدر فيه كلمة ظاهرة التلفيق هنا أو كلمة ظاهرة الإقحام هناك ، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير . فنحن لا نخطئ أن نرى في هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حيناً ، وتتقطع حيناً ، كالوحدة التي نراها بغير انقطاع في كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد . . وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا في تباين ثقافة الإمام ، أو تذوق أسلوبه الذي لا تخطئ فيه مرة جزالة البداية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذي لا تكلف فيه . .

ولا يتم القول في ثقافة الإمام على رضى الله عنه ، ما لم تتممه بالقول في نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذي هو مضماره الأول ومناطق شهرته التي تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة . .

فجملة ما يقال في هذا الصدد ، أن فن الإمام العسكري هو فن البطل المغوار يناضل الأفراد وينفع الجيش الذي هو فيه بقدوة الشجاعة وإذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه ، وأنه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم ، وكيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويفت في عضده . . ومن حيله المشهورة في توهين عزم عدوه ، أنه أمر بعقر الجمل في الوقعة المعروفة باسمه ، لأنه كان علم القوم الذين كانوا يلتفون به ويشبتون بشوته . .

وهذا كله فن البطل المغوار الذي يفرق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش . .

ولم يرد لنا من أبناء الإمام في هذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار . .

نعم . . إنه كان يقسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب وطلبة ومؤخرة ، وأشباه ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفين على التخصيص . .

وكانت له وصايا المحفوظة في تسيير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد ، ومنها قوله : « إذا نزلتم بعدو أو نزل بكم ، فليكن معسكركم من قبل الإشراف وسفاح الجبال ، أو أثناء الأتداء ، كيما يكون لكم رداء ودونكم ردا ،

ولنكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء فى صياصى الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا يأتىكم العدو من مكان مخافة أو أمن ، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة ثلاثهم ، وإياكم والتفرق فإذا نزلتم فانزلوا جميعا وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعا ، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة - أى محيطة بكم - ولا تذوقوا النوم إلا غرازاً أو مضمضة . .

ومنها قوله : «ولا تسر أول الليل ، فإن الله جعله سكنا وقدره مقاما لا ظعنا» ومنها قوله للولاة : «إنى سيرت جنودا هى مارة بكم إن شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشذى ، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذبحا إلى شعبه ، فنكلوا من تناول منهم شيئا ظلما عن ظلمهم ، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم . .»
وهذه وما هو من قبيلها ، منهاج موروثة أو أدب هو أقرب إلى نظام الإدارة منه إلى خطط التعبئة وقيادة الميدان . .

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج فى وقعة صفين ، لم تكن الوقعة كلها إلا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة فى أوقات متباعدة . . كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس المناضل والبطل المفرد فى موقف المبارزة أو فى غمار الصفوف .



وخلاصة ذلك كله ، أن ثقافة الإمام هى ثقافة العلم المفرد والقمة العالية بين الجماهير فى كل مقام . .

وإنها هى ثقافة الفارس المجاهد فى سبيل الله ، يداول بين القلم والسيف ، ويتشابه فى الجهاد بأسه وتقواه . . لأنه بالبأس زاهد فى الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد فى الدنيا مقبل على الله . .

فهو فارس يتلاقى فى الشجاعة دينه ودنياه ، وهو عالم يتلاقى فى الدين والدنيا بحثه ونحوه . .

الفصل العاشر

فسر بينه

خلاصة رأى الإمام فى المرأة أنها «شر كلها .. وشر ما فيها أنه لا بد منها» ..
كان يرى لها فضائل خاص تليق بها غير الفضائل التى تليق بالرجل ومحمد منه ..
«فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال .. الزهو ، والجبن ، والبخل .. فإذا
كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ،
وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها»

والإمام صائر إلى رأى هذا فى المرأة من كلتا طريقيه ، وهما طريق الحكيم الذى
ينظر إليها على سنة الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذى ينظر إليها على سنة
العبادة فى جميع العصور .. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط
عن فطرته الغالبة عليه ، وهى فطرة الفارس المطبوع على آداب الفروسية ، ومنها
التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها .. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه ،
ولا غفل قط عن الوصية بها فى موطن يستدعى هذه الوصية . ومن أمثلة وصاياه
فى هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين ، حيث يقول :

«لا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبن أمراءكم ، فإنهن ضعيفات القوى
والأنفس والعقول ، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول
المرأة فى الجاهلية بالفهر - أى الحجر - أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده ..» .

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية ، كما يظهر من غير حادث واحد .. ومن ذلك
صبية السبى التى استولى عليها وبنى بها لساعتها ، وجعلها قسمة من الخمس قبل
تقسيمه .. فرأى بعض أصحابه فى ذلك ما شكوه إلى النبى عليه السلام من
أجله ، وربما كان هذا سبب تحذيره منها فى الغزوات خيفة على الجيش من
شواغلها ، فكان يقول لسراياه وجيوشه إذا شيعها : «اعزبوا عن النساء ما استطعتم»
وبوصى فى أمثال هذه المواطن باجتنابها ..

غير أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر النساء ، فلم يعرف له هوى
لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذى اختص به السيدة فاطمة رضى الله عنها كرامة
لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها ، وهو غير الهوى الذى تبعته المرأة بمغريات جنسها .

كان جالسا في أصحابه ، فمرت بهم امرأة جميلة ، فرماها القوم بأبصارهم . .
فقال رضى الله عنه : «إن أبصار هذه الفحول طوامح ، وإن ذلك سبب هياجها . .
فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه قليلا من أهله ، فإنما هي امرأة كامرأة» .
وعلى الجملة ، يمكن أن يقال إن آراء الإمام في المرأة هي خلاصة الحكمة القديمة
كلها في شأن النساء . .

فهن شر لا بد منه باتفاق آراء الأقدمين ، سواء منهم حكماء الهند واليونان
أو الحكماء الذين نظروا إلى المرأة بعين الدين من أبناء بنى إسرائيل وآباء الكنيسة
المسيحية وأئمة الإسلام .

لأنهم كانوا جميعا يزوجونها بالشهوات التي تثيرها عامدة أو غير عامدة ، ويلقون عليها
تبعة الشرور التي تنجم عنها بمكيثها أو على الرغم منها ، ولم تتغير هذه النظرة بعض
التغيير إلا في الأزمنة الحديثة التي نظرت في استقلال التبعات على أساس «الحرية
الشخصية» . . فحاسبت المرأة بما تجنيه ، وأوشكت أن تبالغ في تيرتها من جنباياتها .

فمن السهو عن الحقيقة ، أن تتخذ آراء الأقدمين في المرأة دليلا على نصيبهم من
الغبطة أو السكينة في حياتهم البيئية . . لأننا خلقنا أن نحسبهم جميعا من
الأشقياء المعذبين في بيوتهم ، وهو ما تأباه البداهة وتأباه أنباء التاريخ عن كثير من
الأزواج والزوجات النابهات .

وليس من اللازم في حياة الإمام خاصة ، أن يستمد آراءه في المرأة من حياته
البيئية . . فقد كانت تجاربه في الحياة العامة مددا لا ينفذ لهذه الآراء التي شاعت
بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج إلى تجربة مكررة ، وشاءت المقادير أن تنقضى
حياة الإمام على^١ وللمرأة يد في القضاء عليها ، فكانت حياته الغالية مهرا لقطام
التي قال فيها ابن أبي مياس المرادى :

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة	كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعسبد وقسيئة	وضرب على ^٢ بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من على ^٣ وإن غلا	ولا قتك إلا دون فستك ابن ملجم

والذي يجزم به مؤرخ الإمام أن حياته البيئية خلعت من شكاة لم يالفها الأزواج
في زمانه ، وأنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله . .

عاش مع فاطمة رضى الله عنهما ، لا يقرب بها زوجة أخرى . . حتى ماتت بعد موت النبي عليه السلام بستة أشهر . . وهى رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لاشك فيها ، فقد كان النبي عليه السلام كما جاء فى الأثر يغار لبناته غير شديدة ، وروى عنه أنه قال وهو على المنبر مرة : «إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا أذن ، ثم لا أذن ، ثم لا أذن ، إلا أن يريد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم . . فإنها بضعة منى يربىنى ما رابها ويؤذبنى ما آذاها»

وربما كان من وفاته لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبى بكر إلى ما بعد وفاتها على بعض الروايات ، وهجره كما هجرته مدة حياتها . وقد ولدت له أشهر بنينه وبناته : الحسن ، والحسين ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين . وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف فى عددهم المؤرخون ، ويؤخذ من إحصائهم فى «الرياض النضرة» للمحب الطبرى أنه رضى الله عنه وأفر الحظ من الذرية ، بقى منهم بعده كثيرون .

وكان على ما يفهم من خلائقه ، ومن سيرته وأخباره ، أبا سمحا يستريح الأبناء إلى عطفه ، ويجترئون على مساجلته الرأى فى أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام .

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق ، ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها ، جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له : «قد أمرتك فعصيتنى ، فتقتل غدا بمعصية لا ناصر لك فيها» فسأله : «وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟» قال : «أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل الأتباع حتى تأتيتك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر . . فإنهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت . . ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصطالحا . . فإن كان الفساد كان على يدى غيرك ، فعصيتنى فى ذلك كله ا . .

فلم يأنف أن يساجله الرأى ليقنعه ، وجعل يقول له : «أى بنى ا . . أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك لا تباع حتى تأتى بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام . . وأما قولك : اجلس فى بيتك فكيف لى بما قد لزمى ؟ . . ومن تريدنى ؟ . . أتريد أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها ويقال : دباب دباب . .

ليست هنا حتى يحل عرقوبها ثم تخرج .. وإذا لم أنظر فيما لزمى من الأمر
ويعنينى ، فمن ينظر فيه ؟ .. فكف عنك أى بنى .

وهذه معاملة «أخوة» تستغرب فى الأجيال الماضية التى كان للأبوة فيها على
البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق ، ولا ينقضها أنه لطم الحسن يوما
لأنه ظن به تقصيرا فى الدفاع عن عثمان .. فتلك سورة الغضب فى موقف من
أندر المواقف التى لا يقاس عليها فى سائر الأحوال ..

وكان رضى الله عنه ، يزهيه أن يحيط به أبناؤه فى محافل الروع ومشاهد الزخرف ..
فيخرج إليها وهم حافون به عن يمينه وشماله ، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه ،
وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان ..

واشتهر بالمعطف على صغارهم ، كما اشتهر بمودة كبارهم .. فكان أحب شىء
إليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم ، وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من
بنى كلب يخرج بها إلى المسجد ويسره أن يسألها أصحابه : من أخوالك ؟ ..
فتجيب : «وه .. وه» محاكاة لعواء الكلاب ..

وكان يقول : «إن للوالد على الولد حقا ، وإن للولد على الوالد حقا .. فحق
الوالد على الولد أن يطيعه فى كل شىء إلا فى معصية الله سبحانه ، وحق الولد
على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن» ..

ومن إحسان التسمية ، أنه همّ بتسمية ابنه حربا لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف
صناعاته ، لولا أن رسول الله سماه الحسن ، وهو أحسن .. فجرى على هذا
الاختيار فى تسمية أخويه الحسين والحسن . وأتم حق أبنائه فى إحسان أسمائهم ،
فاختار لهم أسماء النبى وأسلافه من الخلفاء : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان .

أما معيشتة فى بيته بين زوجاته وأبنائه ، فمعيشة الزهد والكفاف .. وأوجز
ما يقال فيها إنه كان يتفق له أن يطحن لنفسه ، وأن يأكل الخبز اليابس الذى
يكسره على ركبته ، وأن يلبس الرداء الذى يرعد فيه ، وأن أحدا من رعاياه لم يمت
عن نصيب أقل من النصيب الذى مات عنه وهو خليفة المسلمين .. وكان الخليفة
يوم كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا .. فكان بيته نقيض القصر الذى تعرض
الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه ..

صورة مبسطة

من كلمات الإمام التي لم يقلها أحد غيره كلمته في خطاب الدنيا حيث يقول :
«يادنيا غرى غبرى .. غرى غبرى!» .
وانها لاكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء ..
إنها لسان قدر ، وعنوان حياة ..
فقد خلق الإمام ، وفي كل خليفة من خلفائه الكبار اجترأ على الدنيا ، على
ضرب من ضروب الاجترأ .
خلق شجاعا بالغا في الشجاعة ، وزاهدا عظيم الزهد ، ودارسا محبا للحقيقة
الدينية يتحررها حيث اهتدى إليها ..
والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي الحياة ..
والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي النعيم ..
وطالب الحقيقة جرىء على الدنيا لأنها طريق عنده إلى غاية من ورائها ..
فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة في زمن لم يعرف بطارئ من الطوارئ ، كما
عرف بالإقبال على الدنيا ؟ ..
صام الناس قبله عن الدنيا ، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذافيرها ..
هدأت حماسة الدعوة النبوية ، وثابت الطبايع إلى مألوفها الذي أشرجت عليه ،
وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط في
تاريخها
وأقبل الناس على الدنيا ، بل هرولوا إلى الدنيا ..
وإذا بخليفة جرىء عليها زاهد فيها ، يقف لهم في طريقها ويصدهم عنها ..
يصد ماذا ؟ ..
يصد الطوفان ، وهو مندفع من وراء السدود ..

يصد الطبيعة الإنسانية ، وهي منطلقة من عقال التقوى ..
يصد ما لا سبيل إلى صده بحال ..
فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره .. فإن الإنسان قد يعيش عيشة
الشهداء ، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ..
وقد لزمته آية الشهادة في كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى إليها أو سمعت إليه ..
فمن آيات الشهادة أن يساق إلى الخلافة ، ولا حيلة له في اجتنابها ..
ومن آيات الشهادة أن يساق إليها في ساعة الفصل بينها وبين الملك ، وتقوم
الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان ..
ومن آيات الشهادة أن يساق إليها ، ولا حيلة له في تحقيق أغراضها ولا في
الخروج من مأزقها ..
ومن آيات الشهادة أن يتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه ، ولا حيلة في تبديل
أولئك الأنصار ..
ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا ، وقد غرت حوله كل إنسان .. فهو شهيد ،
شهيد ، شهيد ..
خرج إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة مكتوبة على
ذلك الجبين بضمير حسام ..
وصورته المجمة لا تشق على مصور ولا على متفرس ، لأنها صورة الجاهد في
سبيل الله بيده وقلبه وعقله ، أو صورة الشهيد ..
وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله ، ينبغى أن يتعزل عن محنة القدر التي
لا يغلّبها غالب ..
وقد كان له رأى عالم ، وفطنة حكيم ، ومشورة مدبر .. ولكننا إذا قلنا إنه أخفق
في العمل لأنه لم يغلّب القدر ، فذلك تكليف بما لا يطاق .
وإنما نقول إنه أخفق في العمل ونسك ، ولعله لو تولى الخلافة قبلها أو تولى الملك
بعدها لما ظهر منه ذلك الإخفاق ..

* * *

وحيث يخفق الآخرون
لونصبتهم الأقدار فى مثل مكانه .

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه ، وهو إلى اليوم موضع الخلاف عليها
وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال فى التاريخ .

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده ، ولكنه لم يطلب إليه ذلك . . .
ولا رأى من الحكمة أن يطلبه إليه . قال ابن عباس ورسول الله فى مرض الوفاة :
« اذهب إلى رسول الله ، فسله فيمن يكون هذا الأمر . . فإن كان فينا علمنا ذلك ،
وإن كان فى غيرنا أمر به فأوصى بنا ؟ . . قال : « والله لئن سألتها رسول الله
فمنعتها لا يعطيناها الناس أبدا . . والله لا أسأله رسول الله أبدا . .

أمن الإمام بحكمة الرسول إيمان محبة وتصديق ، ولكنه لم يفارق الدنيا حتى
كان قد آمن بها إيمان تعليم وتطبيق . فلما سأله : « أنبأى الحسن ؟ » قال :
« لا أمركم ولا أنهاكم » فأنصف الذين سبقوه ولم يفرضوا على الناس استخلافه ،
لأنهم رأوا فى موقفه منها مثل ما رأوه فى موقف الحسن ابنه ، على حكم سواء . .

* * *

أى ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام . .

لقد ولد كما علمنا فى الكعبة ، وضرب كما علمنا فى المسجد . . فإية بداية
ونهاية أشبه بالحياة التى بينهما من تلك البداية وتلك النهاية ! . .

* * *

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	تقديم
٧	الفصل الأول : صفاته
١٩	الفصل الثاني : مفتاح شخصيته
٢٣	الفصل الثالث : إسلامه
٢٩	الفصل الرابع : عصر الإمام
٣٩	الفصل الخامس : البيعة
٧١	الفصل السادس : سياسته
٨٧	الفصل السابع : حكومته
١٠٥	الفصل الثامن : النبي والإمام والصحابة
١١٣	الفصل التاسع : ثقافته
١٢٧	الفصل العاشر : فى بيته
١٣١	صورة مجملة

من مؤلفات عملاق الأدب العربي الكاتب الكبير
عباس محمّد العسّاد

- | | |
|--|--|
| ٣٦ - الثقافة العربية | ١ - الله |
| ٣٧ - اللغة الشاعرة | ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء |
| ٣٨ - شعراء مصر وبيئاتهم | ٣ - مطلع النور أو طوابع البعثة المحمدية |
| ٣٩ - أشتات مجتمعات | ٤ - عبقرية محمد ﷺ |
| ٤٠ - حياة قلم | ٥ - عبقرية عمر |
| ٤١ - خلاصة اليومية والشذور | ٦ - عبقرية الإمام علي بن أبي طالب |
| ٤٢ - مذهب ذوى العاهات | ٧ - عبقرية خالد |
| ٤٣ - لا شيوعية ولا استعمار | ٨ - حياة المسيح |
| ٤٤ - الشيوعية والإنسانية | ٩ - ذو النورين عثمان بن عفان |
| ٤٥ - الصهيونية العالمية | ١٠ - عمرو بن العاص |
| ٤٦ - أسوان | ١١ - معاوية بن أبي سفيان |
| ٤٧ - أنا | ١٢ - داعي السماء بلال بن رباح |
| ٤٨ - عبقرية الصديق | ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي |
| ٤٩ - الصديقة بنت الصديق | ١٤ - فاطمة الزهراء والقاطميون |
| ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية | ١٥ - هذه الشجرة |
| ٥١ - مجمع الأحياء | ١٦ - إبليس |
| ٥٢ - الحكم المطلق | ١٧ - جحا الضاحك المضحك |
| ٥٣ - يوميات جزء أول | ١٨ - أبو نواس |
| ٥٤ - يوميات جزء ثاني | ١٩ - الإنسان في القرآن |
| ٥٥ - علم السدود والقيود | ٢٠ - المرأة في القرآن |
| ٥٦ - مع عاهل الجزيرة العربية | ٢١ - عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده |
| ٥٧ - مواقف وقضايا في الأدب والسياسة | ٢٢ - سعد زغلول زعيم الثورة |
| ٥٨ - دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية | ٢٣ - روح عظيم المهاتما غاندى |
| ٥٩ - آراء في الأدب والفنون | ٢٤ - عبد الرحمن الكواكبي |
| ٦٠ - بحوث في اللغة والأدب | ٢٥ - رجعة أبي العلاء |
| ٦١ - خواطر في الفن والقصة | ٢٦ - رجال عرفتهم |
| ٦٢ - دين وفن وفلسفة | ٢٧ - سارة |
| ٦٣ - فنون وشعر | ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية |
| ٦٤ - قيم ومعايير | ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين |
| ٦٥ - ديوان في الأدب والنقد | ٣٠ - مايقال عن الإسلام |
| ٦٦ - عبد القلم | ٣١ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه |
| ٦٧ - ردود وحدود | ٣٢ - لتفكير فريضة إسلامية |
| | ٣٣ - فلسفة القرآنية |
| | ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام |
| | ٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية |

رقم الإيداع : ٩٩/٩٦٩٩

الترقيم الدولي 0 - 6257 - 01 - 977 - I.S.B.N

طبع بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهي إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر في تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
- للشباب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاضم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد
بأن مصر كانت ومازلت وستظل وطن الفكر المتحرر والضم المبدع
والحضارة المتجددة.

مهرجان مبارك



مكتبة الأسرة

1999

مهرجان الأسرة للجميع

To: www.al-mostafa.com